تبرئة الإمام الذهبي

من القدح في شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة زغل العلم

(طبعة مُنقحة ومزيدة)



بقلم

د. علي حسن الروبي

تبرئة الإمام الذهبي من القدح في شيخ الإسلام ابن تيمية

في رسالة زغل العلم

بقلم الدكتور

علي حسن فراج الروبي

عضو هيئة التدريس

بالجامعة الإسلامية بمنيسوتا

1444هـ / 2002 م







"رباني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، بحر العلوم، حبر القرآن، سيد العُبّاد، علم الزهاد، مع ما اشتهر منه من الورع والخوف من الله العظيم، والتعظيم لحرمات الله، ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي، ولا هو بمتلاعب بالدين".

الإمام الذهبي متحدثاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية

" إن شهادة المؤرخين الأثبات المعاصرين لابن تيمية وفي مقدمتهم الذهبي نفسه= لتدل دلالة جليّة على أن التُّهم الأخلاقية الموجهة لابن تيمية في زغل العلم إما كذبٌ من الذهبي وإما كذبٌ عليه، ونحن نُنزه الذهبي عن الاحتمال الأول، وتراجمه لابن تيمية وسيرته معه تدل على ذلك يقيناً، بجانب وجوه النكارة الأخرى في نسبة ذلك القدح إلى الإمام الذهبي، على ما سنراه في هذا الكتاب".

المؤلف





مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فـــهذه رسالة" **تبرئة الإمام الذهبي من القدح في شيخ الإسلام ابن تيمية**"، وقد كانت طبعتها الأولى الورقية صدرت قبل قرابة **خمس عشرة سنة**، وناقشت فيها مدى ثبوت القدح المنسوب إلى الإمام الذهبي في حق شيخ الإسلام ابن تيمية في الرسالة الموسومة بـــ "**زغل العلم**" والمنسوبة إلى الإمام الذهبي، وبيّنتُ فيها من وجوهٍ عديدة نكارةَ إضافة هذا القدح إلى الذهبي وبطلان نسبته إليه.

وقد بدا لي أن أقوم بتنقيح رسالتي وتهذيبها وإعادة ترتيبها على طريقة أفضل مما خرجت عليه طبعتها الورقيةـــ، وحذفِ بعض العبارات التي غلب عليها حدة سن الشباب، وتقديمِ الرسالة في طبعة جديدة فيها نفس نتيجة الطبعة الأولى، لكن بترتيبٍ وتهذيبٍ لوجوه الاستدلال، خالياً- إن شاء الله تعالى- من أي تشتيت للقارئ أو وعورة في سَوق الحُجج.

وإنه لمن الجدير أن أُلْمِحَ في هذه المقدمة إلى ما قد بسطته في موضعه من هذا الكتاب، أنه لم يكن باعثي على التفتيش في هذا الموضوع عصمة ابن تيمية عندي – معاذ الله- أو أنه فوق النقد والقدح، أو عدم تقبلي لانتقاده، أو استعظامي لانتقاد الذهبي له على وجه الخصوص، بل كان الباعث الرئيس ما وجدته من هُجنة ذلك النقد وزعارته بين نُقود الذهبي لابن تيمية، وأنه أجنبيٌّ عن طريقة الذهبي في تراجمه لابن تيمية على كثرة تلك التراجم وتضمنها للنقد اللاذع أحيانًا.

ولقد قادني التفتيش والتقصي إلى اكتشاف وجوه النكارة الكثيرة في هذا القدح الذي حوته رسالة الزغل، وهي نكارة قاضيةٌ على نسبته إلى الذهبي بالبطلان، وسيقف





القارئ على اللوازم المستشنعة لنسبة هذا القدح إلى الذهبي، وأن شناعة نسبته إلى الذهبي لا تقل عن شناعة ما جاء فيه من غمز لأخلاق ابن تيمية ودينه ومروءته.

وجميع ذلك سيراه القارئ في موضعه مبسوطاً بأدلته وحججه العقلية لا بالتوهمات العاطفية أو المغالطات الاستدلالية.

والآن إلى الهيكل الذي جاءت فيه هذه الرسالة.

المبحث الأول: القدح الوارد في الزغل وأهميته وسبب الوقوف عنده.

وفيه مطالب:

المطلب الأول: سياقة مواضع النقد والقدح من رسالة من زغل العلم.

المطلب الثاني: أهمية هذا القدح لدى خصوم ابن تيمية من المعاصرين.

المطلب الثالث: تنبيه على الخلط بين النصيحة الذهبية ورسالة زغل العلم.

المطلب الرابع: سبب الوقوف مع هذا القدح واستشكاله.

المبحث الثاني: إشكالية وقت كتابة رسالة الزغل والخط الزمني لبعض المذكورين فيها.

المبحث الثالث: وجوه نكارة وبطلان نسبة هذا القدح للإمام الذهبي.

الخاتمة

واللهَ تعالى أسألُ التوفيق والسداد والإخلاص والقبول؛ إنه هو الجواد الكريم المنان.

علي الروبي

alielroby7@gmail.com

جمادى الأولى 1444ه/ أكتوبر 2002م





المبحث الأول: القدح الوارد في الزغل وأهميته وسبب الوقوف عنده

وفيه مطالب:

المطلب الأول: سياقة مواضع النقد والقدح من رسالة من زغل العلم

المطلب الثاني: أهمية هذا القدح لدى خصوم ابن تيمية من المعاصرين

المطلب الثالث: تنبيه على الخلط بين النصيحة الذهبية ورسالة زغل العلم.

المطلب الرابع: سبب الوقوف مع هذا النقد واستشكاله.

المطلب الأول

سياقة مواضع النقد والقدح من رسالة من زغل العلم.

الموضع الأول الذي وقع فيه قدح من الذهبي في ابن تيمية:

جاء في رسالة "**زغل العلم**" (ص 38):

"...فلو كنت ذا صنعة لكنت بخير، تأكل من كسب يمينك، وعرق جبينك، وتزدري نفسك ولا تتكبر بالعلم، أو كنت ذا تجارة لكنت تشبه علماء السلف الذين ما أبصروا المدارس، ولا سمعوا بالجهات، وهربوا لَمَّا للقضاء طلبوا، وتعبدوا بعلمهم وبذلوه للناس، ورضوا بثوب خام وبكسرة، كما كان من قريب الإمام أبو إسحاق صاحب التنبيه، وكما كان بالأمس: الشيخ محيي الدين صاحب المنهاج، **وكما ترى اليوم: سيدي عبد الله بن خليل**. **وعلى كل تقدير احذر المراء في البحث، وإن كنت محقًّا فلا تنازع واحذر التكبر والعجب بعملك، فيا سعادتك إن نجوت منه كفافًا لا عليك ولا لك**، **فو الله! ما رمقت عيني أوسع علمًا، ولا أقوى ذكاءً من رجل يقال له: ابن تيمية، مع الزهد في المأكل والملبس والنساء، ومع القيام في الحق والجهاد بكل ممكن، وقد تعبت في وزنه وفتشه حتى مللت في سنين متطاولة؛ فما وجدت قد أخره بين أهل مصر والشام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه إلا الكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار. فانظر كيف وبال الدعاوي ومحبة الظهور– نسأل الله تعالى المسامحة!** – **فقد قام عليه أناس ليسوا بأورع منه، ولا أعلم منه، ولا أزهد منه، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم**، **وما سلطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم، بل بذنوبه، وما دفعه الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون، فلا تكن في ريبٍ من ذلك** "انتهى الكلام في هذا الموضع.



الموضع الثاني الذي وقع غمز من الذهبي لابن تيمية

جاء في رسالة زغل العلم (ص43):

" **فإن برعت في الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة والفلسفة وآراء الأوائل ومجازات العقول، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسنة وأصول السلف، ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية، ولا والله تقربها! وقد رأيت ما آل أمره إليه من الحط عليه والهجر والتضليل والتكفير والتكذيب بحق وبباطل، فقد كان قبل أن يدخل في هذه الصناعة منورًا مضيئاً على محياه سيما السلف ثم صار مظلمًا مكسوفًا عليه قتمة عند خلائق من الناس، ودجالًا أفاكًا كافرًا عند أعدائه، ومبتدعًا فاضلًا محققًا بارعًا عند طوائف من عقلاء الفضلاء، وحامل راية الإسلام وحامي حوزة الدين ومحيي السنة عند عوام أصحابه هو ما أقول لك** " انتهى.





المطلب الثاني

أهمية هذا القدح لدى خصوم ابن تيمية من المعاصرين

فرح مناوئو ابن تيمية وخصومه من أهل البدع أيما فرحٍ بهذا النقد الموجود في رسالة" زغل العلم"؛ واحتفوا به وأذاعوه، وذلك لأمرين:

أولهما: **شهرة نسبة هذه الرسالة إلى الذهبي** فيصعب التشكيك في ذلك القدح الوارد فيها، لا سيما وقد عزاها إلى الذهبي ابن حجر (ت 846 ه) والسخاوي (ت902 ه) وغيرهما للذهبي، وهو ما حدا بكثيرٍ من المشتغلين بالعلم من المنتسبين إلى التيار السلفي إلى التسليم بنسبة هذه الرسالة إلى الذهبي، ومحاولة التوفيق بين هذا الحط على شيخ الإسلام في هذه الرسالة وبين الثناء العاطر الموجود في سائر التراجم، بحيث جعلوا ما في " زغل العلم " متقدمًا وما سواه من التراجم متأخرًا فيكون الذمُ كالمنسوخ الذي لا يُعمل به، وأما خصومهم فقد عكسوا الصورة فجعلوا الانتقاص والذم آخر الأمرين والناسخ في القولين، كما سيأتي معنا في كلامهم.

ثانيهما: **أن أمارات الوضع** في الرسالة الموسومة بــ"**النصيحة الذهبية**" ظاهرة وكلها من أولها إلى آخرها مع ابن تيمية، بخلاف رسالة "**زغل العلم**" فهي كتاب في العيوب الموجودة في كل طائفة من الطوائف المشتغلة بالعلم: من محدثين وفقهاء وقراء، وفي أثنائه وُجد هذا الحطّ على ابن تيمية، مما يعني صعوبة التشكيك في نسبته إلى الذهبي.





ثم راح هؤلاء المناوئون لابن تيمية ومنهجه يضعون هذا الانتقاد الموجود في رسالة" **زغل العلم**" تحت عناوين براقة في المواقع المختلفة على الشبكة العنكبوتية، وذلك مثل:

- **"الذهبي يكشف اللثام عن حقيقة ابن تيمية"**
- **"...حتى نضع ابن تيمية في الخانة التي جهَّزها له الذهبي"**
- **"ابن تيمية بأقلام أهل السنّة"**

وتحت هذا العنوان الأخير:

1- " لم أجد مَن هو أقرب منالًا وأصدق مقالًا في حق ابن تيمية من الذهبي الـّذي أثنى عليه كثيرًا في تراجمه في عدة من كتبه وهو غير متهم عليه، حتى أنّه ألف كتابًا في سيرته وسمّاه (الدرة اليتيمية في السيرة التيمية) اطلع عليه ابن الوردي فأخذ منه، مختصرًا له ما كتبه من تاريخه عن ابن تيمية.

2- "وكان الذهبي وهو من معاصري ابن تيمية مدحه في أول الأمر، ثم لما انكشف له حاله قال في رسالته "بيان زغل العلم" والطلب ما نصه..."، ثم ساقوا ما في الزغل.

3- "... هذا يؤيد وصف الذهبي له "في بيان زغل العلم والطلب" بالكبر وازدراء الأكابر وفرط الغرام في رئاسة المشيخة، ومعلوم أن الكبر من الكبائر يفسق فاعله"[1].

4- وقال صاحب التعليقات على الزغل والنصيحة الذهبية ص 10: "الإمام الذهبي أثنى على الإمام ابن تيمية في تاريخ الإسلام وفي السير، ولكن قد ذكر أنه يخالفه في مسائل عقدية وفرعية، وفي كتابه هذا أظهر خلاصة تجربته مع شيخه، فبين سبب الأمور التي وقعت لشيخه الإمام ابن تيمية، ولم يكن هذا الحكم والقرار إلا بعد تفتش وعناء، بل كان بعد مناصحات يتجلى ذلك في قول الذهبي: وقد تعبت في وزنه وفتشه حتى مللت في سنين متطاولة"[2]. انتهى

---

(1) كل هذا وغيره موجود في المواقع الالكترونية

(2) التعليقات على الزغل والنصيحة الذهبية ص 10.





المطلب الثالث

تنبيه على الخلط بين رسالة "النصيحة الذهبية" ورسالة "زغل العلم"

خلط كثير من الناس بين هاتين الرسالتين: "**النصيحة الذهبية**" و" **زغل العلم**"؛ فظنَّوهما رسالةً واحدة، وليس كذلك؛ بل هما كتابان متغايران، فـــــ "**زغل العلم**" عبارة عن كتاب تكلم فيه صاحبه عن عيوب كل طائفة من علماء هذه الأمة ليتجنبها القارئ، وأما "**النصيحة الذهبية**" فعبارة عن رسالة بعثها كاتبها إلى ابن تيمية ينصحه فيها بالكف عن الجدل ويحذره من الإصرار على الشذوذ عن جماعة أهل العلم!!

وأكثر المشتغلين بالعلم في عصرنا على بطلان نسبة رسالة" **النصيحة الذهبية** " إلى الإمام الذهبي، وقد ألف الشيخ **محمد إبراهيم الشيباني** رسالة في تفنيدها وكشف كذبها. وألف كذلك الأستاذ **محمد عبد الله أحمد القونوي** كتابًا فيها مبينًا انتحالها وتزويرها على الذهبي.





وقد وقع هذا الخلط بين الرسالتين لغير واحدٍ من الأفاضل، وانظر مثالًا له هذا الجواب الصادر عن مركز الفتوى بأحد مواقع الشبكة العنكبوتية:

رقم الفتوى: **30511**

عنوان الفتوى: لا تصح نسبة رسالة "بيان زغل العلم والطلب" إلى الإمام الذهبي.

تاريخ الفتوى: 05 صفر 1424هجري.

المفتي: مركز الفتوى بإشراف د. عبد الله الفقيه.

السؤال:

بعض مجموعة من الطوائف الضالة أخبرتني بأن الذهبي انتقد شيخ الإسلام بشدة في رسالة تسمى "بيان زغل العلم والطلب" أنا لم أستطع أن أجد هذه الرسالة، لكن أنا أعرف أن الذهبي مدح شيخ الإسلام كثيرًا، فهل ذلك صحيح؟ وكيف أجيبهم؟

فالرسالة المسماة "بيان زغل العلم والطلب" أو "النصيحة الذهبية" المنسوبة للإمام الذهبي والتي فيها حطٌّ كبير من شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى -لا تصح نسبتها إلى الإمام الذهبي، قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد: والإمام الذهبي في دينه وورعه وخلقه يرتفع قدره عن مثل هذه الرسالة التي تنادي عباراتها على بطلانها. وقد ألف الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني رسالة في إبطال نسبة هذه الرسالة إلى الإمام الذهبي سماها "التوضيح الجلي في الرد على النصيحة الذهبية المنحولة على الإمام الذهبي " ومما جاء فيها " أقول: إن هذه النصيحة لا تصح نسبتها إلى الإمام الذهبي لاعتباراتٍ عدة:

أولًا: لم يذكرها أحد ممن اعتنى بمؤلفات الذهبي رحمه الله تعالى.

ثانيًا: الذهبي تلميذ طالت ملازمته للشيخ ابن تيمية وحتى آخر أيامه إلى وفاته رحمه الله تعالى.





ثالثًا: جميع أقوال الذهبي في كتبه المعتمدة أو أقواله المنتشرة في الثناء على ابن تيمية والحفاوة به تنكث هذه الرسالة وتنادي ببطلان نسبتها إليه بل وتزويرها عليه.

رابعًا: هذه الرسالة بخط خصم ملد لابن تيمية رماه بسهم من القول مفزع، وهي شهادة مرفوضة شرعًا.

خامسًا: حتى الساعة لم نر دليلًا من دلائل التوثيق المعتبر يسند صحة نسبتها إليه، وهذا دونه خرط القتاد.

سادسًا: لم نر من نسبها للذهبي -رحمه الله تعالى- بعد ابن قاضي شهبة إلا عصريه الحافظ السخاوي -رحمه الله- وفي الوقت الذي لم يذكر فيه مستندًا للتوثيق لا نشك أن اعتماده على هذه النسخة لا يتجاوز زمنه، ومن مضلات عصريه ابن قاضي شهبة، ولهما التقاء في المشرب المناهض لدعوة ابن تيمية رحمه الله تعالى.

سابعًا: أما المعاصرون المثبتون لنسبتها إلى الذهبي فهم بين رجل يلتقي مع ابن قاضي شهبة مذهبًا ومشربًا، وآخر لم يأت بدليل، وأنى يكون القبول لقول عري عن الدليل.

ثامنًا: الشدة غير اللائقة بأهل العلم ومنهم الإمام الذهبي مع شيخه الإمام ابن تيمية. انتهى. عن كتاب "كتب حذر منها العلماء" (309/2).

والله أعلم.

انتهى نص الفتوى.

فانظر كيف كان السؤال عن رسالة " **زغل العلم** " وجاء الجواب عن " **النصيحة الذهبية**"!!





المطلب الرابع

المطلب الرابع سبب الوقوف مع هذا القدح واستشكاله

لابد أن يعلم القارئ الكريم أن الداعي إلى الوقوف عند هذا النقد المنسوب للذهبي والسعي إلى التحقق منه= لم يكن منشؤه أن ابن تيمية معصومًا لا ينبغي أن يُنتقد عند راقم هذه السطور، أو أنه ينبغي أن يُكَذَّب جميع ما وُجِّه له من نقدٍ، و لم يكن منشؤه كذلك أن الذهبي يستحيل أن يكون قد انتقد ابن تيمية0

كلا! كل ذلك لم يكن؛ فابن تيمية بشرٌ له عيوبٌ وذنوبٌ، وثبت أن ناسًا خالفوه، وناسًا عابوه، وأقواما بدّعوه، وآخرين كفروه، فليس سبيلٌ إلى إنكار كونه قد انتقد وقُدح فيه كغيره من أهل العلم.

وأما بالنسبة للذهبي فقد اشتهر عنه قولته أنه مخالف لابن تيمية في مسائل في الفروع والأصول، وثبت عنه أيضًا انتقاده لابن تيمية في أمور نقمها منه عندما ترجم له.

و لم يكن الحامل على الوقوف أمام هذا القدح كذلك= أن الإمام الذهبي معروف بميله لشيخ الإسلام وأنه من مادحيه، فإن المؤرخ قد يثني على العالِم في موضع وينتقده في آخر، بل وفي مواضع، بل قد يجمع بينهما في موضع، بل هذه نفسها هي عادة الذهبي في تراجمه خصوصًا المطوَّل منها، وقد وقع بعض هذا في تراجمه لشيخ الإسلام.

إذن، فما الذي أوجب التشكك في هذا القدح المنسوب إلى الذهبي في شأن ابن تيمية؟؟

الحقيقة أن هُجنة هذا القدح الوارد في زغل العلم وزعارته بين جميع ما كتبه الذهبي عن ابن تيمية مدحًا أو نقدًا= هي ما أوجبت التوقف مع هذا النقد والنظر في أمره، ومحاولة الوقوف على حقيقة نسبته إلى الذهبي.



إن تلك الهجنة والزعارة هي ما جعلت خصوم الذهبي في زماننا يطيرون به فرحاً، ويزعمون أنه بمثابة الناسخ لجميع ما قاله الذهبي من مدح في حق ابن تيمية، وهي كذلك ما دفعت بعض محبي ابن تيمية وأتباعه في عصرنا بأن يزعموا بأنه كان في بداية معرفة الذهبي بابن تيمية، وأن التراجم الأخرى التي أثنى فيها على ابن تيمية هي الناسخ لما جاء في هذا النقد المظلم.

وسنرى ما في هذين القولين جميعًا (أعني كون ما جاء في الزغل ناسخًا أو منسوخًا بما ورد في غيره من التراجم) من خلل وعدم سواغيته في موضعه بإذن الله.

لكن لعل قائلاً يقول: لماذا هذه الفروض والاحتمالات من أصلها، ولماذا نهول من الموضوع ونقول بالنسخ؟

لماذا لا نقول بأننا أمام حالة وقع فيها تعارض بين الجرح والتعديل من ناقدٍ واحدٍ في حق أحد الأشخاص مما ترجم لهم؛ وغاية ما في الأمر أن يقال أثنى الذهبي على ابن تيمية في مواضع من كتبه وانتقده في هذا الموضع من رسالة زغل العلم، وهذا تاج الدين السبكي قد أثنى على شيخه الذهبي عند ترجمته له، ورماه بعدم الإنصاف والتحامل على الأشاعرة والجهل بالمباحث الكلامية في غير موضع من طبقاته؟

وهذا الصنيع غايته أن يُستشكل لا أن يُوجب هذه التصرفات أو أن يبحث ويتحقق من ثبوته... إلخ

والجواب: أن الأمر هنا ليس كذلك، فقد يثني الناقد على الرجل في أمرٍ وينتقده في آخر، وأحيانًا يجمع الناقد بين القدح والثناء في موضع، وقد يذكر أحدهما في موضع، والآخر في موضعٍ غيره. لكن هذا إذا كان متعلق النقد والقدح غير متعلق الثناء والحمد، كأنْ يثني الناقد على المترجم له بالعلم ويقدح في ورعه، أو العكس، أو يمدحه بالزهد وينتقده في سوء الخلق إلى آخر هذه الأشياء.



فمثلًا، تاج الدين السبكي أثنى على شيخه الذهبي في علمه واطلاعه وحفظه، وانتقده في تحامله على الأشعرية وتعصبه لابن تيمية وللحنابلة (في زعمه)، فلا وجه للاستغراب أصلًا، وهذا الذهبي نفسه يمدح ابن تيمية في علمه ودينه وزهده، وينتقده في حدته في البحث وشظفه على الخصوم وعدم التؤدة، وانفراده بمسائل؛ فإذا اتسع المقام ذكر كل هذه الأمور بالتفصيل، وإذا ضاق اختصرها، أو اكتفى بالمدح، وهكذا.

لكن هذا الذي نحن بصدده الآن هو نقدٌ مظلمٌ لم يوجد في أي ترجمة ترجمها الذهبي لابن تيمية على كثرة ذلك، وفي الوقت نفسه هو نقد يتعارض مع ثناء الذهبي السابق واللاحق كما سنبينه في موضعه، وفوق كل هذا ليس المقام مقامه ولا الموطن موطنه؛ أعني موطن النقد، وهو رسالة زغل العلم؛ إذ هذه وريقات في العيوب الموجودة في كل طائفة دون تعيين أفراد منها، والمقصود منها التنبيه على الخطأ للتحذير منه لا الكلام في الأشخاص والناس، ثم هو موجه إلى ابن تيمية دون سائر العلماء لا مرة عابرة بل يتكرر هذا في موطنين من الرسالة، وبعبارات لم توجد له في سائر المواطن التي ترجم فيها الذهبي لابن تيمية، مع اشتمال بعض تراجم الذهبي لابن تيمية على النقد وربما النقد اللاذع أحيانًا مثل قوله:

" وقد انفرد بفتاوي نيل من عرضه لأجلها، وهي مغمورة في بحر علمه، فالله تعالى يسامحه ويرضى عنه، فما رأيت مثله وكل أحد من الأمة فيؤخذ من قوله ويترك، فكان ماذا؟ " (1)

وقوله: " وانفرد بمسائل فنيل من عرضه لأجلها، وهو بشر له ذنوب وخطأ " (2)

وقوله:"...فإنه مع سعة علمه وفرط شجاعته وسيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدين، بشر من البشر تعتريه حدة في البحث، وغضب وشظف للخصم؛ تزرع له عداوة في النفوس،

---

(1) تذكرة الحفاظ (4 / 1496)0

(2) معجم المحدثين (25/1)0



ونفورًا عنه. وإلا والله لو لاطف الخصوم ورفق بهم لكان كلمة إجماع، فإن كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه، معترفون بشفوفه وذكائه، مقرون بندور خطئه" إلى أن قال:"...لكن ينقمون عليه أخلاقًا وأفعالًا، منصفهم فيها مأجور ومقتصدهم فيها معذور، ظالمهم فيها مأزور وغاليهم مغرور، وإلى الله ترجع الأمور" [1].

وقال مرة، وقد ذكر فتنة الحموية: " والذين سعوا في الشيخ ما أبقوا ممكنًا من القذف والسب ورميه بالتجسيم. وكان **قد لحقهم حسد للشيخ** وتألموا منه بسبب ما هو المعهود من تغليظه وفظاظته وفجاجة عبارته، وتوبيخه الأليم المبكي المنكي المثير النفوس، ولو سلم من ذلك لكان أنفع للمخالفين، لاسيما عبارته في هذه الفتيا الحموية. **وكان غضبه فيها لله ولرسوله باجتهاده**، فانتفع بها أناس وانفصم بها آخرون و لم يحملوها" [2].

ولا يوجد في أي من هذه التراجم هذه البلية العظيمة التي تذهب- عند تأملها- بكل فضيلة لابن تيمية بل ولأي عالم، فالإفراط في حب الرياسة والمشيخة يدل على فساد النية وعدم إخلاص العمل لله تعالى، وهذا من محبطات الأعمال بلا شك، والعجب والكبر من أقبح أمراض القلوب التي لا يكاد يفلح صاحبهما، ولا توجد هذه الصفات إلا في علماء السوء وحدهم، وحاشاها وحاشا العلماء العاملين.

فما معنى هذا؟ وهل نحن أمام مجرد تعارض بين جرح وتعديل من إمام واحد غايته أن يُستشكل لا أن يمنع؟!

---

(1) ذيل تاريخ الإسلام"، وهو مخطوط، ونقلت منه بواسطة الجامع لسيرة شيخ الإسلام (خلال سبعة قرون) (ص 209).

(2) تاريخ الإسلام للذهبي (13 / 401). وهذا أقوى ما وقفت عليه من نقد للذهبي في حق شيخ الإسلام، و لم يستعمل هذا الأسلوب في أي من مواطن ترجمته له، بل يستعمل عبارات أكثر تأدبًا مع شيخه.

ومع فجاجة عبارة الذهبي هنا، لكنك تجد فيها نفَس الذهبي المعروف في سائر تراجمه لشيخ الإسلام: فقد ذكره بلفظ الشيخ، وأن ما وقع له مبدؤه الحسد له، وذكر شدته وحدته، وأنه كان مجتهدًا فيما ذهب إليه، وأن غضبه كان لله ورسوله" وكل هذا مكرر في تراجمه له مع اختلاف الأسلوب بطي ونشر.





تنبيهات مهمة

التنبيه الأول:

وجدتُ بعضَ الإخوة قد سلك سبيلًا آخر في تبرئة الذهبي مما جاء في "زغل العلم" مدعيًا أن كلام الذهبي ليس فيه شيء من الذم في حق ابن تيمية، وأن العبارة المطبوعة فيها تحريف لانحراف طابعها عن شيخ الإسلام، وأن النقد الموجود مقصود به أعداء الشيخ؛ أي أن معنى النقد: ما أخره بين أهل مصر والشام، ومقتته نفوسهم، وازدروا به وكذبوه وكفروه، ما سبب ذلك إلا الكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار"، فتقدير الضمير في العجب والكبر وفرط الغرام برياسة المشيخة يعود إلى أعداء ابن تيمية لا إليه هو".

ولكن هذا بعيد جدًّا، ولو كان كذلك لقال:" ما ازدروا به وكفروه إلا للحسد، ونحوه"، فهو الذي يحمل على مثل هذه الأمور، ثم إن آخر الكلام يأباه وهو قوله:" فانظر كيف وبال الدعاوى وحب الظهور" فهي كالسبب للمقت والازدراء والتكفير ومنسجم مع وصفه بالعجب والكبر، بخلاف ما إذا كان المقصود أعداء الشيخ، ويدلك عليه أيضا قوله:"... وما جرى عليهم- يعني ابن تيمية وأصحابه – إلا بعض ما يستحقون" فهذا سياق واحد المقصود منه: الحط على ابن تيمية وأصحابه.

وأيضًا؛ لو كان غرضه الثناء على ابن تيمية هل يقول:" رجل يقال له: ابن تيمية "كأنه لا يعرفه، وهو تلميذه؟ وسنبسط ذلك لاحقًا.

التنبيه الثاني:

في كتاب "المقالات الدمشقية في الدفاع عن ابن تيمية وكشف الضلالات الحبشية" (ص 46) أورد النقد الذي بالزغل هكذا:

" فو الله ما رمقت عيني أوسع علماً ولا أقوي ذكاءً من رجلٍ يقال له: ابن تيميه مع الزهد في المأكل والملبس والنساء مع القيام في الحق والجهاد بكل ممكن 000 مقتته نفوسهم





وازدروا به وكذبوه وكفروه إلا للكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة ومحبة الظهور نسأل الله تعالي المسامحة، فقد قام عليه أناس ليسوا بأروع منه ولا بأعلم منه ولا أزهد منه، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم. وما سلطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم بل بذنوبه، وما دفع الله عنه وعن أتباعه أكثر وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون"

وهذا تصرف في النص بحذف بعضه ليتغير معناه، ومثله لا يجمل من أهل السنة. وقد عرفنا أن النص مزور من الأصل، فما ثمة داعٍ لمثل هذا، بل هذا الفعل مما يشمت أهل البدع بأهل السنة فينسبونهم إلى التدليس، وقد قالوه حيال هذا الفعل مع هذا النص.

التنبيه الثالث:

جاء في كتاب" شيخ الإسلام ابن تيمية " جمع وترتيب أحمد فريد- عند الكلام على " ثناء العلماء عليه" ص 6: وقال الحافظ جلال الدين السيوطي ــ رحمه الله ــ :

فو الله ما رمقت عيني أوسع علما، ولا أقوى ذكاء من رجل يقال له ابن تيمية، مع الزهد في المأكل والملبس والنساء ومع القيام في الحق والجهاد بكل ممكن ". انتهي.

وقال أيضا: " ابن تيمية الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر، أحد الأعلام.. كان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين والزهاد والأفراد....". انتهى ما جاء في الكتاب المذكور.

أقول: لا أدري كيف وقع هذا الخلط، وما منشؤه؟ فهذه الفقرة " فو الله ما رمقت عيني... " إلخ، منتزعة من النقد المظلم الموجود في زغل العلم المنسوب للإمام الذهبي، فما للسيوطي ولها؟! بل إن بين وفاة ابن تيمية وميلاد السيوطي ما يربو على مائة عام، فمتى رمقه بعينه؟!!

وفوق هذا كله: لا وجود لها في كتاب "طبقات الحفاظ" للسيوطي، فمن أين جِيء بها معزوةً للسيوطي، بل مقدمةً على ترجمة السيوطي لابن تيمية؟!



المبحث الثاني

إشكالية وقت كتابة رسالة الزغل والخط الزمني لبعض الشخصيات المذكورة فيها

الحقيقةُ أن هذا النقد الموجه إلى ابن تيمية في هذه الرسالة مع تتبع الخط الزمني لحياته وحياة أحد الشخصيات المذكورة في رسالة الزغل وربط ذلك بوقت كتابة الرسالة= يسبب إشكالية ينتج عنها إما التشكيك في نسبة هذه الرسالة (زغل العلم) إلى الذهبي وإما في نسبة هذا الكلام القادح إلى الذهبي.

ولاستجلاء هذه الدعوى التي ادعيناها نطرح هذا السؤال: ما الوقت المفترض له أن يكون هو زمن كتابة هذه الرسالة مشتملة على النقد المظلم في شأن ابن تيمية؟ فهل كتبت هذه الرسالة بنقدها المشار إليه في حياة ابن تيمية؟ أم بعد وفاته؟

دعونا نلقي الضوء على ثلاث شخصيات مرتبطة بهذا النقد وبهذه الرسالة، وهم:

الأول: **ابن تيمية**. وهو الشخص المذموم في رسالة الزغل، والمذكور كمثال على علماء السوء المتخلقين بأخلاق الكبر والعجب.

الثاني: **عبد الله بن خليل**. وهو الشخص الممدوح كمثال على العالم الرباني العامل بعلمه.

الثالث: **الذهبي**. وهو الشخص الذي يفترض أنه مؤلف رسالة زغل العلم، والقادح في ابن تيمية والمادح لعبد الله بن خليل في النقد الذي نتكلم عنه.



لقد تكرر في رسالة زغل العلم ذكر الشيخ المحدث: عبد الله بن خليل (ت 777 ه)، وورد اسمه فيها مرتين بلقب (سيدي عبد الله بن خليل)، وعبد الله بن خليل هذا من شيوخ الذهبي لا شك؛ فقد ذكره في "المعجم المختص" [1]

لكن الذي يسترعي الانتباه، أن مولد هذا الشيخ سنة (694)، فالذهبي أسن منه بإحدى وعشرين سنة، فمولده سنة(673هـ)،وليس ببعيد أن يطري الذهبي مَن هو أصغر منه سنًّا، لكن الغريب أن يطري هذا الرجل ويصفه بهذا الوصف المبالغ فيه، وغير المعهود من الذهبي دون كل مَن ذكره من الأئمة والشيوخ في الرسالة على جلالة قدرهم وخطير مترلتهم، مع أن الذهبي لم يصف الرجل بهذا الوصف الذي يومئ بالمبالغة في التقدير في موطنه اللائق به؛ أعني عند ترجمته للرجل في "معجمه المختص"، ولا في "تذكرة الحفاظ" بل قال: **عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن خليل العسقلاني، ثم المكي المقرئ الشافعي المحدث، الإمام القدوة الرباني بهاء الدين أبو محمد،** قرأ بالروايات وأتقن المذهب وعني بالحديث ورحل فيه، وأخذ عن بيبرس العديمي بحلب، وعن ست الوزراء والدشتي بدمشق، وعن التوزري ورضي الدين بمكة، وعن طائفة بمصر، **وكان حسن القراءة، جيد المعرفة، مليح المذاكرة، متين الديانة، ثخين الورع، مكثرًا للانقطاع والخمول، كبير القدر، مولده سنة أربع وتسعين وستمائة (694هـ) بمكة** [2].

---

(1) معجم المحدثين" (ص 126).

(2) معجم المحدثين"(ص126).

وبعد تتبع كتب الذهبي في التراجم مثل "تذكرة الحفاظ" و"المعجم المختص"، و" تاريخ الإسلام"، و"سير أعلام النبلاء" (بالبحث عن طريق الحاسب) لم أجده يطلق كلمة: سيدي ولا سيدنا على أحد من شيوخه ومعاصريه عند ترجمته له، وما وقع هذا إلا مرة في "معجم المحدثين" (ص137)، قال في ترجمة عبد الرحمن بن عبد المحسن الواسطي: " عبد الرحمن بن عبد المحسن بن عمر بن شهاب الإمام المفتي محدث واسط وعالمها وكبيرها سيدي الشيخ تقي الدين أبو الفرج الواسطي الشافعي".





وقال عنه في معجم الشيوخ:

" عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن خليل، أبو محمد القرشي، المكي الشافعي، المحدث مفتي مكة أبي عبد الله. ولد سنة أربع وتسعين وستمائة، وسمع بمكة من الفخر التوزري والصدر بن مكتوم وعدة وقدم علينا طالب حديث، فسمع من القاضي والمطعم الدشتي، وبحلب من بيبرس العديمي وطائفة، وتلا بالسبع على أبي محمد الدلاصي بمكة وعلى الصائغ إذ جاور.

وهو لون عجيب في الانجماع والانقباض على الناس وحسن السمت والتعفف، وهو فاضل قوي المذاكرة في الرجال، كثير العلم ثم دخل في المنطق فالله يسلم، ثم أقبل على شأنه" انتهى [1]

لكن – وعلى كل حال- ليس تخصيص عبد الله بلقب سيدي عبد الله بن خليل دون كل الشيوخ الواردة أسماؤهم في الزغل= هو موضع الإشكال.

إنما موضع الإشكال أمر آخر، وسنجعل بيانه في نقاط ليسهل الوقوف عليه:

النقطة الأولى: الظاهر أن رسالة الزغل مكتوبة في حياة ابن تيمية.

يدل على هذه الفرضية ما ورد في الرسالة من قول صاحبها "... **فما أدركنا من أصحاب الحديث إلا طائفة: كقاضي ديار مصر وعالمها تقي الدين بن دقيق العيد، والحافظ الحجة شرف الدين الدمياطي، والحافظ جمال الدين بن الظاهري، والشيخ شهاب الدين بن فرح ونحوهم، وأدركنا من عكر الطلبة: شهاب الدين ابن الدقوقي، ونجم الدين ابن الخباز، والشيخ عبد الحافظ ونحمد الله في الوقت أناس يفهمون هذا الشأن، ويعتنون بالأثر: كالمزي، وابن تيمية، والبرزالي، وابن سيد الناس، وقطب الدين الحلبي، وتقي الدين السبكي، والقاضي شمس الدين الحنبلي، وابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وصلاح الدين العلائي، وفخر الدين بن الفخر وأمين الدين بن الوابي وابن إمام الصالح ومحب**

---

(1) معجم شيوخ الذهبي، تحقيق : روحية السيوفي (ص 265)







الدين المقدسي وسيدي عبد الله بن خليل وجماعة سواهم فيهم العكر والغثاء الله يستر والمرء مع من أحب والسعيد من نهض وأهب وعلى الطاعة أكب والله الموفق والهادي" انتهى [1].

فأنت ترى أن صاحب هذا الكلام ذكر أنه لم يدرك من المشتغلين بالعلم من يستحق أن يكون من أصحاب الحديث حقًّا إلا الإمام ابن دقيق العيد والحافظ الدمياطي وابن الظاهري وابن فرح، وبعض عكر الطلبة كابن الدقوقي وابن الخباز، ثم تكلم عن الأحياء فقال: " **نحمد الله أن في الوقت أناس يفهمون هذا الشأن ويعتنون بالأثر كالمزي وابن تيمية**...إلخ.

فلو كانت هذه الرسالة مكتوبة بعد موت شيخ الإسلام ابن تيمية، لكان ينبغي أن يجعله في زمرة من أدركهم من كبار الحفاظ أو من عكر الطلبة.

النقطة الثانية: أن عبد الله بن خليل وقت كتابة الرسالة قد صار إماماً مقتدى به.

فقد قال صاحب رسالة الزغل مادحاً العلماء العاملين الزاهدين

"... وتعبدوا بعلمهم وبذلوه للناس، ورضوا بثوب خام وبكسرة، كما كان من قريب الإمام أبو إسحاق صاحب التنبيه، وكما كان بالأمس: الشيخ محيي الدين صاحب المنهاج، **وكما ترى اليوم: سيدي عبد الله بن خليل"** انتهى. [2]

---

(1) زغل العلم"ص 32) ومن الطريف الذي ينبغي أن يذكر: أن عبد الله بن خليل – رحمه الله تعالى– ممن أخذ عن شيخ الإسلام ابن تيمية؛ قال الحافظ: وقرأت بخط الحافظ صلاح الدين العلائي في ثَبَت شيخ شيوخنا الحافظ بهاء الدين عبد الله بن محمد بن خليل ما نصه: وسمع بهاء الدين المذكور على الشيخين شيخنا وسيدنا وإمامنا..... عمدة الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، ركن الشريعة ذو الفنون البديعة أبو العباس ابن تيمية " انتهى "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" (186/1) وسننقله كاملًا في حينه. وعلى هذا فابن تيمية شيخ لعبد الله بن خليل كما هو شيخ للذهبي.

(2) زغل العلم ص 38





النقطة الثالثة: هل تدل ترجمة عبد الله بن خليل أنه أصبح من مشاهير العلماء العاملين في حياة ابن تيمية؟

الذي تدل عليه ترجمة عبد الله بن خليل في كتب التاريخ والتراجم:

- أنه مكي المولد ومولده في سنة 694.

- أنه رحل إلى الشام في طلب العلم ولقاء شيوخها الذين منهم الذهبي، وأن هذه الرحلة كانت سنة 712، وأن سنه فيها كان ثمانية عشر عاماً.

- أنه رحل إلى مصر مرتين، وتحولت الرحلة الثانية إلى إقامة دائمة حتى وفاته فيها.

- أن رحلته الأولى إلى مصر كانت لطلب العلم وأخذه عن مشايخه، وقد بدأت هذه الرحلة سنة 721، واستمرت سبع سنوات، ثم رجع بعدها إلى مكة وأقام بمكة لمدة عامين.

- أن رحلته الثانية إلى مصر التي تصدى فيها للإسماع وتعليم وبزغ فيها نجمه ثم مال فيها إلى الخمول والانقطاع عن الناس كانت بعد وفاة ابن تيمية الذي توفي سنة 721، وهو تاريخ انتهاء رحلة عبد الله بن خليل الأولى إلى مصر حيث عاد بعدها إلى مكة.

وإلى توثيق ذلك من تراجمه [1]:.

قال الذهبي: مولده سنة أربع وتسعين وستمائة (694) بمكة [2].

قال ابن الجزري (ت 739 هـ) في ترجمة الشيخ عبد الله بن خليل: "...**ورحل إلى دمشق بعد الحج سنة اثنتي عشرة وسبعمائة** فسمع من الدشتي والتقي سليمان وابن الخرائطي، والموجودين

(1) انظر ترجمة عبد الله بن خليل في: انظر "تذكرة الحفاظ"، و "المعجم المختص"، و "الوافي بالوفيات" (320/17)، و "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"(73/3)، والسلوك لمعرفة دول الملوك(392/4)، و "ذيل تذكرة الحفاظ"(1 / 47)، و" المنهل الصافي" (120/7)، و " طبقات الأولياء" ص 557.

(2) معجم المحدثين"(ص126) وجاء في "المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي" (7 / 120) ولد بمكة سنة أربع وتسعين وقيل: سنة خمس وتسعين وستمائة.





بها إذ ذاك، ثم رحل إلى حلب فسمع من بيبرس العديمي وأحمد بن العجمي وغيرهما، ثم توجه إلى القاهرة والإسكندرية وأكثر من السماع..." [1].

وقال الذهبي في ترجمته لعبد الله بن خليل:

" **وقدم علينا طالب حديث** فسمع من القاضي والمطعم الدشتي.........." [2]

وقال ابن الملقن:

" **وقدم مصر سنة إحدى وعشرين وسبعمائة**. واشتغل على الشيخ تقي الدين السبكي، وعلاء الدين القونوي، وأبي حيان، والشمس الأصفهاني. **ثم عاد إلى مكة** بعد سبع سنين وأقام بها سنتين. **ثم قدم إلى مصر** "[3].

وقال المقريزي (ت 845 هـ) مؤرخًا لوفاته:

"... في يوم الأحد ثالث جمادى الأولى، بخلوته من سطح جامع الحاكم، وكانت له جنازة عظيمة جدًّا، ومولده سنة أربع وتسعين وستمائة. كان فقيهًا شافعيًّا صاحب فنون، **قدم من مكة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة إلى القاهرة**، وأخذ الفقه عن التقي السبكي والعلاء القونوي، والنحو عن أبي حيان، والأصفهاني، **وعاد إلى مكة بعد سبع سنين، ثم قدم منها بعد سنتين إلى البلاد الشامية**" [4].

وقال ابن تغري بردي (ت 874 هـ):

---

(1) غاية النهاية في طبقات القراء" (1/ 403)
(2) معجم شيوخ الذهبي ص 265
(3) طبقات الأولياء (ص 557)
(4) السلوك لمعرفة دول الملوك" (392/4)





" وصحب الشيخ ياقوت مدة، وتجرد وساح بديار مصر سنين لا يعرف له مقر، ثم قدم القاهرة وانقبض عن الناس، ولوطف حتى أسمع كثيرًا من مسموعاته، وكان يجلس للسماع يومين في الجمعة: يوم الجمعة ويوم الثلاثاء"[1].

وقال ابن الملقن (ت 804 ه) أيضًا:

" أعاد بتدريس القلعة والمنصورية في الحديث وغيرهما، وتمشيخ بالخانقاه الكريمية بالقرافة.

ومات يوم الأحد، ثالث جمادى الأولى، سنة سبع وسبعين وسبعمائة" [2].

فالذي يتحصل بعد الربط بين النقاط الثلاث السابقة، أعني وقت كتابة رسالة زغل العلم وأنها كانت في حياة ابن تيمية، وما جاء فيها مما يدل على شهرة عبد الله بن خليل كعالم رباني جامع بين العلم والعمل، وما يضاد من ذلك مما تدل عليه ترجمة عبد الله بن خليل من الوقت الزماني لإمكان حصول شهرته بالعلم والعمل وأن ذلك لم يقع إلا بعد موت ابن تيمية.. أقول: إن الربط بين تلك النقاط ليوجب في أقل ما يوجبه إشكالاً في شأن نسبة هذه الرسالة للذهبي، أو أن بعض الأيدي قد زادت فيها لاحقاً ذلك القدح المتعلق بابن تيمية والمدح المتعلق بعبد الله بن خليل.

(1) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي" (7 /122)

(2) طبقات الأولياء (ص 557)





المبحث الثالث

وجوه نكارة هذا القدح وبطلان نسبته للإمام الذهبي



المبحث الثالث

وجوه نكارة هذا القدح وبطلان نسبته للإمام الذهبي

سأذكر هنا ما وقفت عليه من وجوه النكارة في هذا القدح بما ينشرح له صدر القارئ ويرتضيه عقله، ويظهر به جلياً أنه إنْ صحة نسبة كتاب "زغل العلم" للإمام الذهبي، فلا بد أن هذا القدح المتعلق بشيخ الإسلام ابن تيمية مقحم فيها عن عمدٍ وقصدٍ، وليس من كَتْب الذهبي بلا ريب.

الوجه الأول

تراجم الذهبي لابن تيمية معروفة مشهورة، ومدحه له وثناؤه عليه مستفيض، وهذه التراجم بعضها مكتوب في حياة ابن تيمية وبعضها مكتوب بعد موته، ونفَس الذهبي فيها جميعاً واحدٌ فيثني وينتقد ويمدح ويؤاخذ، وسنعرض نموذجين من تلك التراجم واحدة في حياة ابن تيمية والثانية بعد موته، لكن ليس في شيء منها ما يشبه هذا القدح المذكور في **زغل العلم** والذي فيه هدم لابن تيمية أخلاقياً.

وإذا كان الأمر كذلك، وكان القدح الوارد في الزغل مغاير ومخالف لما جاء في التراجم الأخرى ومعارض لما فيها، ففي حال نسبته للذهبي فلا يخلو الأمر من احتمالين:

الاحتمال الأول: أن يكون هذا القدح الوارد في الزغل في مبدأ أمر الذهبي قبل ملازمته لابن تيمية، وتكون التراجم التي أثنى عليه فيها متأخرة.

الاحتمال الثاني: عكس ذلك: أن يكون هذا الذم الوارد في الزغل آخر الأمرين، وتراجم المدح والثناء متقدمة عليه.





ولنبدأ **بالاحتمال الثاني**، وهو أن يكون هذا النقد المظلم متأخرًا عن تراجم الثناء والمدح، فيكون بمثابة الناسخ لها، ويكون هذا هو رأي الذهبي الأخير في ابن تيمية بعد تمحيص وتفتيش، ولمن يقول بهذا الاحتمال أن يستدل له بالعبارة الواردة في الزغل، وهي قوله فيه: "فقد تعبت في فتشه ووزنه في سنين طويلة..."، وأما ثناء الذهبي على ابن تيمية المتناثر في تراجمه فلكونه كان مخدوعًا فيه [1].

لكن في الحقيقة هذا الاحتمال غير منطقي ولا مقبول؛ فإن حاصله أن الذهبي كان مغرمًا بابن تيمية إلى قبيل وفاته بسنوات، ثم انقلب عليه بهذا النقد المظلم الهادم في رسالة **زغل العلم** [2]

---

(1) وهذا ما يحلو للكوثري أن يتعلق به ويدندن حوله، فإنه يزعم أن ثناء أمثال ابن كثير وابن عبد الهادي إنما كان؛ لأنهم وقتها كانوا شبابًا ففتنوا بابن تيمية و لم يعرفوه على حقيقته؛ فلا عبرة بكلامهم فيه، وأن ثناء أمثال ابن دقيق العيد وابن الزملكاني وغيرهم من الكبار كان قبل أن يقفوا على حقيقة أمره وباطن سره، وأنهم عادوا فذموه وعابوه. انظر:" ذيل تذكرة الحفاظ" (1/ 159، 320).

ومما قال الدكتور صلاح المنجد عند إثباته نسبة "النصيحة الذهبية":

" ويبدو أنه كتبها في آخر عمره. و لم يثن أحد على الشيخ كثناء الذهبي عليه، لكنه انتقده بعد ذلك في بعض الأمور حبًّا له، وإشفاقًا عليه "انظر كتابه: " شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين "(ص14)

وفي مقالة ببعض المنتديات قال بعضهم في حق ابن تيمية: وكان الذهبي وهو من معاصري ابن تيمية مدحه في أوّل الأمر ثمّ لمّا انكْشف له حاله قال في رسالته " بيان زغل العلم والطلب "ثم ساق هذا النقد". انتهى.

(2) في "سير أعلام النبلاء"(15 / 88) نقل قول الأشعري: "اشهدْ عليَّ أني لا أكفر أحدًا من أهل القبلة؛ لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات". ثم قال:

" قلت: وبنحو هذا أدين، وكذا كان شيخنا ابن تيمية في أواخر أيامه يقول: أنا لا أكفر أحدًا من الأمة، ويقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن " فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم.

مما يدلك على دوام الملازمة والاتصال بالشيخ إلى آخر حياته والتأثر به بعد مماته. وهذه الفروض التي نذكرها إنما هي من باب التنزل والإلزام وتوضيح المطلوب، وإلا فالذهبي عاش محبًّا ومتأثرًا بابن تيمية في حياة شيخه وبعد مماته.





ثم رضي عنه عند موته، فرثاه بقصيدة [1]، وعاد يمدحه بعد ذلك دائماً، ولا يذكر عنه هذه الأخلاق القبيحة الواردة في زغل العلم، فهل يتصور هذا الكلام ويقبله عاقل يحترم عقله ويعتد بقواعد التفكير المنطقي؟!

إنك ستجد في تراجم **الذهبي** فيما قاله في ابن تيمية **بعد موته**:

" الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام، علم الزهاد نادرة العصر، وبرع في الرجال وعلل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام وعلم الكلام وغير ذلك، وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين والزهاد الأفراد والشجعان الكبار والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف وسارت بتصانيفه الركبان لعلها ثلاث مائة مجلد" [2].

ويقول عنه كذلك:

---

(1) يقول فيها:

يا موت خذ من أردت أو فدع محوت رسم العلوم والورع

أخذت شيخ الإسلام وانفصمت عرى التقى واشتفى منه أولو البدع

غيبت بحرًا مفسرًا جبلا برًا تقيًّا مجانب الشيع

فإن يحدث فمسلم ثقة وإن يناظر فصاحب اللمع

وإن يخض نحو سيبويه يفه بكل معنى من الفن مخترع

وصار عالي الإسناد حافظه كشعبة أو سعيد الضبعي

والفقه فيه فكان مجتهدا وذا جهادٍ عارٍ من الجزع

وجوده الحاتمي مشتهر وزهده القادري في الطمع

أسكنه الله في الجنان ولا زال عليًّا في أجمل الخلع

مع مالك الإمام وأحمد والنعمان والشافعي والخلعي

مضى ابن تيمية وموعده مع خصمه يوم نفخة الفزع

انظر: الرد الوافر لابن ناصر (ص35).

(2) تذكرة الحفاظ (4 / 1496).





" فو الله! ما مقلت عيني مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، كان إمامًا متبحرًا في علوم الديانة، صحيح الذهن، سريع الإدراك، سيال الفهم، كثير المحاسن، موصوفا بفرط الشجاعة والكرم، فارغا عن شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه " [1].

ويقول عنه:

" كان آية في الذكاء وسرعة الإدراك، رأسًا في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، بحرًا في النقليات؛ هو في زمانه فريد عصره: علمًا وزهدًا وشجاعةً وسخاءً وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر وكثرة تصانيف..."إلى أن قال:

" **وهو أعظم من أن يصفه كلمي، أو ينبه على شأوه قلمي،** فإن سيرته وعلومه ومعارفه ومحنه وتنقلاته تحتمل أن ترصع في مجلدتين، وهو بشر من البشر له ذنوب، فالله تعالى يغفر له ويسكنه أعلى جنته، فإنه كان **رباني الأمة، وفريد الزمان، وحامل لواء الشريعة، وصاحب معضلات المسلمين،** وكان رأسًا في العلم يبالغ في إطراء قيامه في الحق والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبالغةً ما رأيتها ولا شاهدها من أحدٍ ولا لحظتها من فقيهٍ " [2].

فلو قبلنا الاحتمال المذكور وأن النقد المظلم الوارد في زغل العلم هو الناسخ للثناء السابق من الذهبي على ابن تيمية؛ فلازم ذلك الافتراض: أن الذهبي في عقله شيءٌ حيث لازم شيخ الإسلام دهرًا وهو يمدحه ويطريه، ثم انقلب عليه فجأة بهذا النقد الذي بالزغل، ثم رجع إلى ما كان عليه من إطرائه والذب عن حياضه، حتى عُرف عند بعض المؤرخين بأنه متحاملٌ على خصوم ابن تيمية!

---

(1) المعجم المختص (ص 25).

(2) العقود الدرية (ص38).





فهل يقول بذلك عاقل يدري ما يخرج من رأسه؟!

بقي استدراك مضحك نسوقه للدعابة، يمكن أن يتمسك به خصوم ابن تيمية الذين أسعدهم وأبهجهم الانتقاص الوارد في الزغل، ومحصل هذا الاستدراك أن يقال: " أصاب ابنَ تيمية العجبُ والكبرُ وحبُ الرياسة في قبره وبعد أن رمّ، وبعد أن كان الذهبي قد كتب كل ما قاله فيه من مدح وإطراء على دينه"!!

نعود الآن إلى **الاحتمال الأول**، وهو:

أن يكون هذا القدح الوارد في الزغل في مبدأ أمر الذهبي قبل ملازمته لابن تيمية، وتكون التراجم التي أثنى عليه فيها متأخرة [1].

وفي الحقيقة فهذا الافتراض بنفس منزلة الافتراض الآخر من حيث عدم العقلانية والسواغية والتصور. لماذا؟

هناك أمران يقضيان بعدم سواغية هذا الاحتمال أو معقوليته.

فالأمر الأول: أن صاحب ذلك القدح الوارد في زغل العلم صرّح بأنه قد كوّن رأيه القبيح في ابن تيمية ووصل إليه بعد تقليب النظر في شأن ابن تيمية، ونص كلامه هكذا " "**فقد تعبت في فتشه ووزنه في سنين طويلة**"، فكيف يقال مع ذلك إن هذا القدح والذم إنما كان في بداية معرفة الذهبي بابن تيمية وأنه عاد ومدحه وأثنى عليه.

والأمر الثاني: أن نفس في هذه الرسالة – وكما تقدمت الإشارة- ورد فيها الثناء على الشيخ عبد الله بن خليل وجُعل هذا الرجل مثالا على العالم الرباني في مقابل ابن تيمية الذي يمثل عالم السوء.

---

(1) قال بموجب هذا بعض الأفاضل: أي أن الذهبي رجع عما قاله في "زغل العلم" في التراجم الأخرى التي كانت بعد وفاة الإمام ابن تيمية رحمه الله.





وإلى سنة ثنتي عشرة وسبعمائة كان عبد الله بن خليل هذا لم يبلغ سنه ثمانية عشر عاماً، وأما ابن تيمية فكان قد جاوز الخمسين من عمره.

فلو كان هذا الاحتمال قائماً كما يزعمه أولئك القائلين به= لكانت هذه الرسالة – رسالة الزغل – مكتوبة في المرحلة الأولى من علاقة الذهبي بابن تيمية، ولكن الواقع يقول إنه في هذه المرحلة المحتملة لكتابة الرسالة =كان الشيخ عبد الله بن خليل المشار إليه آنفا في عالم الغيب و لم يحضر إلى الدنيا بعد، أو في سن الطفولة وريعان الصبا، فإن ابن تيمية قد فارق الدنيا وسن عبد الله بن خليل أربعة وثلاثون عاماً.

وأما ذكره بعض الأفاضل من أن الذهبي ذم ابن تيمية في زغل العلم ثم أثنى عليه في التراجم التي كتبها بعد موته، فهو في غاية البعد أيضا لمن تأمله، فصاحب القدح الموجود في الزغل يقول إنه كوّن رأيه السيء في ابن تيمية بعد تمحيص وتفتيش، ولازم هذا أن يكون هذا الرأي في أخريات حياة ابن تيمية، فما الذي تغير بعد موته ابن تيمية من أخلاق ابن تيمية أوجب للذهبي أن يمدحه بضد ما ذمه به في الزغل؟!

هل اكتشف بعد فحص وتفتيش أنه متكبر معجب برأيه، ثم اكتشف فجأة موته أنه ليس كذلك وأنه عالم رباني؟!

وحيث قد انتهى بنا تتبعنا للفروض الممكنة عقلًا في وقت كتابة هذا النقد الهدام إلى هذا المقام الذي يراه القارئ الفطن، وعرفنا عدم سواغ عزوه للذهبي بكونه وقع منه أولًا، كما يدندن حوله بعض الناس من محبي شيخ الإسلام ممن يثبتون نسبة هذا النقد للذهبي، وعدم سواغ كونه وقع آخرًا كما يدندن حوله خصوم ابن تيمية ومبغضوه الذين طاروا بهذا الانتقاد وأذاعوه وأشاعوه.. أقول:





نقدم الآن برهاناً مبيناً وحجة دامغة على بطلان نسبة هذا النقد للذهبي، وذلك بنقل **ترجمتين مطولتين** ترجمهما الذهبي لابن تيمية **إحداهما في حياته** [1] **والأخرى بعد مماته**، وننقل ما فيهما من مدح وقدح وإطراء وإغضاء، ونقف بعدها عند ما جاء فيهما من حقائق، تُظهر بما لا يدع مجالًا للشك براءة الذهبي من هذا الكلام الأثيم في حق ذلكم الإمام العظيم، رحم الله الجميع!

أولاً: الترجمة التي كتبت في حياة ابن تيمية: [2]

وهذه الترجمة لطولها سأنقل أكثرها مما يتعلق بما نحن بصدده ملتزمًا بنقل النقد جنبًا إلى جنب مع المدح، ولا أهمل أي عبارة يُفهم منها النقد والقدح.

قال الحافظ **أبو عبد الله الذهبي**:

" تقي الدين الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية، الإمام الحبر البحر العلم الفرد، شيخ

---

(1) مستند ذلك- أعني كونها مكتوبة في حياة ابن تيمية- من الترجمة قوله فيها:" وله الآن عدة سنين لا يفتي بمذهب معين بل بما قام عليه الدليل"

وقوله: "وهو الآن يلقي الدرس، ويقرئ العلم، ولا يفتي إلا بلسانه". ومن مستنداته من خارج الترجمة :قال ابن عبد الهادي في "العقود الدرية" (ص 40) عندما نقل بعض ما جاء في هذه الترجمة: قال الذهبي في ترجمة طويلة للشيخ قبل وفاة الشيخ بدهر طويل، ثم ساق بعض ما في "الدرة اليتيمية".

(2) هذه الترجمة هي "الدرة اليتيمية في السيرة التيمية" أفردها الذهبي في سيرة شيخه ابن تيمية، وقد كتبها في حياة شيخه كما سترى من سياقها، وأكمَلَها بعد موته حيث ذكر جنازته ووفاته، وهي عادة الذهبي في تراجمه كما ذكر ذلك محقق "الدرة اليتيمية" التي طبعت ضمن كتاب "المسائل والأجوبة" بتحقيق أبي عبد الله حسين عكاشة، وقد ذكر المحقق أن هذه الترجمة نقل منها:

ابن عبد الهادي في "العقود الدرية" و"مختصر طبقات أصحاب الحديث"، **وابن رجب** في" طبقات الحنابلة"، وابن العماد في "الشذرات"، **وابن حجر** في "الدرر الكامنة"، **وصديق حسن خان** في " أبجد العلوم"، وغيرهم. لكن صديق خان عزى ما نقل منها إلى "الدرة اليتيمية"، في حين أن ابن رجب قد عزى ما نقله إلى " التاريخ الكبير للذهبي". انتهى

قلت: كأن هذا التاريخ ليس هو " تاريخ الإسلام " المطبوع والمتداول الآن، فإنه ليس فيه شيء من هذه الترجمة.





الإسلام نادرة العصر: تقي الدين أبو العباس أحمد الحراني الحنبلي نزيل دمشق.

ولد بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وهاجر والداه به وبإخوته عند جور التتار، فسار بهم وبالكتب على عجلة؛ لعدم الدواب، وكاد العدو أن يلحقهم، ووقفت العجلة، فابتهل إلى الله واستغاث به، فنجوا وسلموا، وقدموا دمشق في أثناء سنة سبع وستين، فسمعوا من الزين بن عبد الدائم نسخة ابن عرفة، وغير ذلك، ثم سمع شيخنا الكثير من ابن أبي اليسر، والكمال بن عبد، والمحدث ابن عساكر - أصحاب الخشوعي- ومن الجمال يحيى بن الصيرفي، وأحمد بن أبي الخير سلامة، والقاسم الإربلي، والشيخ شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر، وأبي الغنائم علان، وخلق كثير.

وسمع مسند أحمد مرات، والكتب الكبار والأجزاء، وعني بالحديث ونسخ جملة صالحة، وتعلم الخط والحساب في المكتب، وحفظ القرآن وأقبل على التفسير إقبالًا كليًا حتى حاز فيه قصب السبق، وأحكم أصول الفقه وغير ذلك، هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة، فانبهر الفضلاء من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه ونشأ في تصونٍ تامٍّ، وعفافٍ وتألهٍ وتعبدٍ، واقتصادٍ في الملبس والمأكل.

وكان يحضر المحافل [1]في صغره ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال، ومات والده وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم، فدرس بعده بوظائفه وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره وبَعُد صيته في العالم، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز في الجُمَع على كرسي من حفظه، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم؛ وكذا كان الدرس بتؤدةٍ وصوتٍ جهوريٍّ فصيح، فيقول في المجلس أزيد من كراسين أو أقل، ويكتب على الفتوى في الحال عدة أوصال بخط سريع على غاية التعليق

(1) في العقود الدرية: "المدارس والمحافل".





والإغلاق.

قرأت بخط شيخنا العلامة: كمال الدين علم الشافعية في حق ابن تيمية[1] :

كان إذا سئل عن فنٍّ من العلم، ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم- سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها- إلا فاق فيه أهله [2] واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها.

قلت: وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة فنون الحديث، وبالعالي والنازل، وبالصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه، وهو عجب في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف من بحر وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي، وأما التفسير فمسلم إليه، وله في استحضار الآيات من القرآن- وقت إقامة الدليل بها على المسألة- قوة عجيبة، وإذا رآه المقرئ تحير فيه؛ **ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطلاعه، يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويوهي أقوالًا عديدةً وينصر قولًا واحدًا موافقًا لما دل عليه القرآن والحديث** ويكتب في اليوم والليل من التفسير، أو من الفقه، أو من الأصلين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل نحوًا من أربعة كراريس أو أزيد، وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة وله

---

(1) وفاة كمال الدين ابن الزملكاني قبل وفاة ابن تيمية بعام وهذا الكلام كتبه في سنة بضع وتسعين، كما ذكره ابن رجب عن الذهبي في "ذيل طبقات الحنابلة"، وقد مدحه بكلام آخر أفضل من هذا، ثم انحرف عليه وعاداه حتى وفاته (سنة 727).

(2) في "العقود الدرية" : " أهله والمنسوبين إليه، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين".





في غير المسألة مصنف مفرد في مجلد "

وذكر **الذهبي** بعض تصانيفه ثم قال:

"وله باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، وقل أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة وصنف فيها واحتج لها بالكتاب والسنة.

ولما كان معتقلًا بالإسكندرية التمس منه صاحب سبتة أن يجيز له مروياته وينص على أسماء جملة منها، فكتب في عشر ورقات جملة من ذلك بأسانيدها من حفظه بحيث يعجز أن يعمل بعضه أكبر محدث0

وله الآن عدة سنين لا يفتي بمذهب معين بل بما قام عليه الدليل عنده.

ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها0

وأطلق عباراتٍ أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا، وجسر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشأم قيامًا لا مزيد عليه، وبدَّعوه وناظروه وكابروه، **وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده، وحدة ذهنه، وسعة دائرته في السنن والأقوال، مع ما اشتهر عنه من الورع، وكمال الفكرة، وسرعة الإدراك، والخوف من الله، والتعظيم لحرمات الله**؛ فجرى بينه وبينهم حملات حربية، ووقائع شامية ومصرية وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة **فينجيه الله؛ فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية** وله من الطرف الآخر محبون من العلماء والصلحاء، ومن الجند والأمراء، ومن التجار والكبراء، وسائر العامة تحبه؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلًا ونهارًا بلسانه وقلمه، وأما شجاعته: فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال0 فلقد أقامه الله في





نوبة غازان والتقى أعباء الأمر بنفسه، وقام وقعد وطلع وخرج، واجتمع بالملك مرتين وبقطلوشاه وببولاي، وكان قبجق يتعجب من إقدامه وجرأته على المغول، وله حدة قوية تعتريه في البحث حتى كأنه ليث حرب.

وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أنى ما رأيت بعيني مثله، ولا والله! ما رأى هو مثل نفسه في العلم، وفيه قلة مداراة وعدم تؤدةٍ غالبًا، والله يغفر له. وهو فقير لا مال له، وملبوسه كأحد الفقهاء — فرجية ودلق وعمامة- يكون قيمة ثلاثين درهما، ومداس ضعيف الثمن، وشعره مقصوص وعليه مهابة، وشيبه يسير، ولحيته مستديرة، ولونه أبيض حنطي اللون، وهو ربع القمة، بعيد ما بين المنكبين، كأنه عيناه لسانان ناطقان، ويصلي بالناس صلاةً لا يكون أطول من ركوعها وسجودها، وربما قام لمن يجيء من سفر أو غاب عنه، وإذا جاء فربما يقومون له، والكل عنده سواء؛ فإنه فارغ من هذه الرسوم، و لم ينحن لأحدٍ قط، وإنما يسلم ويصافح ويبتسم، وقد يعظم جليسه مرة، ويهينه في المحاورة مرات".

ثم ذكر الذهبي ما جرى لشيخ الإسلام من محنةٍ عندما كتب الحموية وما أعقبها من محنٍ أخرى مع القضاة المصريين والشاميين، إلى أن قال فيما يشبه النقد [(1)]:

" وجرت له أمور ومحن ما بين ارتفاع وانخفاض، وفتر سوقه، ودخل في مسالك كبار لا تحتملها عقول أبناء زمانه ولا علومهم، كمسألة التكفير في الحلف في الطلاق، ومسألة أن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة، وأن الطلاق في الحيض لا يقع، وصنف في ذلك تواليف لعلها تبلغ أربعين كراسًا، فمنع من ذلك من الفتيا، وساس نفسه سياسةً عجيبةً، واستبد برأيه، وعسى أن يكون كفارة ذلك كفارة له، فالله يؤيده بروح منه

---

(1) كان بالوسع كتمان هذا النقد عن القارئ والضرب عنه صفحًا، فلا ننقل إلا ما كان في جانبنا وهو(المدح)، كما يفعله أهل البدع حين ينقلون ما لهم دون ما عليهم في مواطن الجدال والنزاع، ولكننا ننقل المدح والقدح — إن وجد- جنبًا إلى جنب؛ لنصل إلى الحق، وبالله التوفيق.





ويوفقه لمراضيه0

وهو الآن يلقي الدرس ويقرئ العلم ولا يفتي إلا بلسانه، ويقول: لا يسعني أن أكتم العلم. وله شهامة وقوة نفس توقعه في أمور صعبة ويدفع الله عنه، وله نظم قليل وسط ولم يتزوج ولا تسرى، ولا له من المعلوم إلا شيء قليل وإخوة تقوم بمصالحه، ولا يطلب منهم غداءً ولا عشاءً في غالب الوقت. **وما رأيت في العالم أكرم منه ولا أفرغ منه عن الدنيا والدرهم، بل لا يذكره، ولا أظنه يدور في ذهنه، وفيه مروءة وقيام مع أصحابه وسعي في مصالحهم، وهو لونٌ عجيبٌ ونبأٌ غريبٌ0**

وهذا الذي ذكرته من سيرته فعلى الاقتصاد، وإلا فحوله أناس من الفضلاء يعتقدون فيه وفي علمه وزهده ودينه وقيامه في نصر الإسلام بكل طريق أضعاف ما سقت، وثَمَّ أناسٌ من أضداده يعتقدون فيه وفي علمه، لكن يقولون: فيه طيش وعجلة وحدة ومحبة للرياسة، وثم أناس – قد علم الناس قلة خيرهم وكثرة هواهم – ينالون منه سبًّا وكفرًا، وهم إما متكلمون، أو من صوفية الاتحادية، أو من شيوخ الزوكرة، أو ممن قد تكلم هو فيهم فأقذع وبالغ، فالله يكفيه شر نفسه، وغالب حطه على الفضلاء أو المتزهدة فبحق، وفي بعضه هو مجتهد".

ثم ذكر الذهبي مذهب الشيخ في العذر بالجهل وقيامه في كشف أحوال الدجالين، وعلاجه لكثير من المصابين بالصرع، ثم إنه أكمل هذه الترجمة بعد موت الشيخ فذكر وفاته وجنازته.

وقفة مع هذه الترجمة:

قد خرجنا الآن من هذه الترجمة برأي الذهبي في ابن تيمية وقد حوى الثناء والنقد، والإطراء والإغضاء، وذِكر المحاسن والمآخذ، وينبغي لنا أن نقف وقفةً متأنيةً مع ما ذيَّل به الذهبي رأيه في ابن تيمية؛ أعني قوله:" **وهذا الذي ذكرته من سيرته فعلى**



الاقتصاد...."إلخ، وحُق لنا أن نقف مع كلامه هذا بتأنٍّ وتروٍّ؛ فقد بيّن أن ما قاله في هذا الرجل هو على سبيل القصد والتوسط ومجانبة الغلو فيه والانحراف عنه، وأنه لم يسلك فيه سبيل المغالين من أتباعه ومحبيه، ولا المجحفين من أعدائه ومبغضيه، وأن أتباعه والمغالين فيه يعتقدون في الرجل أضعاف ما ذكر الذهبي، وأن أضداده والمبغضين له، فبعضهم وإنْ أقرّ بعلمه إلا أنه يرى فيه طيشًا وعجلةً **وحبًّا للرياسة**، وبعضهم يغلو فيميل إلى تفسيقه وتكفيره.

فلم يذكر الذهبي في هذا المقام – مقام الترجمة المفردة المطولة، وهو الأليق والأنسب من مقام رسالة صغيرة في موضوع بعيدٍ عن ابن تيمية وترجمته ووزنه والحكم عليه كرسالة "زغل العلم" – لم يذكر أن ابن تيمية متكبرٌ أو معجبٌ أو محبٌّ للرياسة، فكيف يقبل عاقلٌ فضلًا عن طالب علمٍ وعالم أن يسلم بصحة نسبة النقد الذي بالزغل للذهبي؟

فالذهبي أشار إلى **أربعة اتجاهات** وآراء في ابن تيمية:

الأول: رأي الذهبي نفسه والذي ساقه ها هنا، والذي عبّر عنه بأنه اقتصاد وتوسط في شأن ابن تيمية.

الثاني: رأي طائفة من المعجبين والمتعصبين لابن تيمية وهذه الطائفة ترى في ابن تيمية من المحاسن والأوصاف والنعوت أضعاف أضعاف ما ذكر الذهبي المقتصد في شأن ابن تيمية.

الثالث: رأي طائفة من مخالفي ابن تيمية تعتقد أعلميته ومنزلته لكنها تصفه في الوقت نفسه بالطيش والعجب **ومحبة الرئاسة**.

الرابع: رأي طائفة من أعداء ابن تيمية من المتكلمين أو الصوفية يسبونه ويكفرونه.



فيا أخا الإنصاف إن شئت أن تضع رأي صاحب الزغل الذي يتهم ابن تيمية بالكبر والعجب، فإلى أي اتجاه من هذه الاتجاهات الأربعة ستضيفه؟ أإلى الاتجاه الأول الذي اقتصد في شأن ابن تيمية وذكر فضائله وعاب عليه بعض المؤاخذات التي ليس من بينها العجب والكبر؟

أم إلى الاتجاه الثاني الذي يغالي في ابن تيمية كل المغالاة؟

أم إلى الاتجاه الثالث من مخالفي ابن تيمية الذي يعرفون له علمه لكن يقولون إنه يحب الرئاسة والمنصب؟

أم إلى الاتجاه الرابع من أعداء ابن تيمية الذين يسبونه ويكفرونه؟

إن العقل والإنصاف ليصداناك عن أن تجعل صاحب النقد الهادم الظالم الذي في زغل العلم هو هو صاحب الاتجاه الأول الذي اقتصد في شأن ابن تيمية وذكر محاسنه وفضائله الكثيرة وخالفه في مسائل ونقم منه بعض التصرفات والخصال التي ليس من بينها ما يتعلق برذائل الأخلاق كالكبر والعجب وحب الرياسة.

ثانيًا: الترجمة التي كتبها بعد موته

قال الذهبي رحمه الله تعالى بعد أن ساق نسب ابن تيمية كاملًا:

"الشيخ الإمام العالم المفسر الفقيه المجتهد الحافظ المحدث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهرة والذكاء المفرط، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن العالم المفتي شهاب الدين عبد الحليم، ابن الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات، عبد السلام مؤلف "الأحكام"، ابن عبد الله بن أبي القاسم الحراني، ابن تيمية هو لقب لجده الأعلى. مولده في عاشر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وست مئة بحران، وتحول به أبوه وأقاربه إلى دمشق في سنة سبع وستين، عند جور التتار؛ منهزمين في الليل، يجرون الذرية والكتب على عجلة؛ فإن العدو ما تركوا في البلد دواب سوى بقر الحرث، وكلت البقر من ثقل العجلة، ووقف الفرار،





وخافوا من أن يدركهم العدو، ولجأوا إلى الله، فسارت البقر بالعجلة، ولطف الله تعالى، حتى انحازوا إلى حد الإسلام.

فسمع من: ابن عبد الدائم، وابن أبي اليسر، والكمال بن عبد، وابن أبي الخير، وابن الصيرفي، والشيخ شمس الدين، والقاسم الإربلي، وابن علان، وخلق كثير، وأكثر وبالغ.

وقرأ بنفسه على جماعة وانتخب، ونسخ عدة أجزاء، و"سنن أبي داود"، ونظر في الرجال والعلل، وصار من أئمة النقد، ومن علماء الأثر، مع التدين والنبالة، والذكر، والصيانة.

ثم أقبل على الفقه، ودقائقه وقواعده وحججه، والإجماع والاختلاف؛ حتى كان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف، ثم يستدل ويرجح ويجتهد، وحق له ذلك؛ فإن شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعت فيه؛ فإنني ما رأيت أحدًا أسرع انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضارًا لمتون الأحاديث، وعزوها إلى الصحيح أو إلى المسند أو إلى السنن منه؛ كأن الكتاب والسنن نصب عينيه، وعلى طرف لسانه، بعبارةٍ رشيقةٍ، وعينٍ مفتوحةٍ، وإفحامٍ للمخالف. وكان آيةً من آيات الله تعالى في التفسير، والتوسع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين.

وأما أصول الديانة ومعرفتها، ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة؛ فكان لا يشق فيه غباره، ولا يلحق شأوه.

هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله قط، والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل، والفراغ عن ملاذ النفس، من اللباس الجميل، والمأكل الطيب، والراحة الدنيوية.





ولقد سارت بتصانيفه الركبان، في فنون من العلم وألوان، لعل تواليفه وفتاويه في الأصول والفروع والزهد والتفسير والتوكل والإخلاص وغير ذلك، تبلغ ثلاث مائة مجلد، لا بل أكثر.

وكان قوَّالًا بالحق، نهَّاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ذا سطوةٍ وإقدام، وعدم مداراة الأغيار. ومن خالطه وعرفه، قد ينسبني إلى التقصير في وصفه، ومن نابذه وخالفه، ينسبني إلى التغالي فيه، وليس الأمر كذلك. مع أنني لا أعتقد فيه العصمة، كلا!

فإنه مع سعة علمه، وفرط شجاعته، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمات الدين، بشر من البشر تعتريه حدَّةٌ في البحث، وغضبٌ وشظفٌ للخصم؛ تزرع له عداوةً في النفوس، ونفورًا عنه.

وإلا والله فلو لاطف الخصوم، ورفق بهم، ولزم المجاملة وحسن المكالمة؛ لكان كلمة إجماع؛ فإن كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه، معترفون بشفوفه وذكائه، مقرون بندور خطئه.

لست أعني بعض العلماء الذين شعارهم وهجيراهم الاستخفاف به، والازدراء بفضله، والمقت له، حتى استجهلوه وكفروه ونالوا منه، من غير أن ينظروا في تصانيفه، ولا فهموا كلامه، ولا لهم حظ تام من التوسع في المعارف، والعالم منهم قد ينصفه، ويرد عليه بعلم.

وطريق العقل السكوت عما شجر بين الأقران ــــ رحم الله الجميع ــــ

وأنا أقل من أن يُنبّه على قدره كلمي، أو أن يوضح نبأه قلمي؛ فأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه، مقرون بسرعة فهمه، وأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له، وأن جوده حاتمي، وشجاعته خالدية.



ولكن قد ينقمون عليه أخلاقًا وأفعالًا؛ منصفهم فيها مأجور، ومقتصدهم فيها معذور، وظالمهم فيها مأزور، وغاليهم مغرور، وإلى الله ترجع الأمور، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك، والكمال للرسل، والحجة في الإجماع. **فرحم الله امرأً تكلم في العلماء بعلم، أو صمت بحلم، وأمعن في مضايق أقاويلهم بتؤدةٍ وفهْمٍ، ثم استغفر لهم، ووسع نطاق المعذرة، وإلا؛ فهو لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.**

وإن أنت عذرت كبار الأئمة في معضلاتهم، ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته؛ فقد أقررت على نفسك بالهوى، وعدم الإنصاف!

وإن قلت: لا أعذره؛ لأنه كافرٌ عدوٌّ لله تعالى ورسوله! قال لك خلقٌ من أهل العلم والدين: ما علمناه والله إلا مؤمنًا محافظًا على الصلاة، والوضوء، وصوم رمضان، **معظِّمًا للشريعة ظاهرًا وباطنًا.** لا يؤتى من سوء فهم، بل له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم، فإنه بحر زخار، بصير بالكتاب والسنة، عديم النظير في ذلك، **ولا هو بمتلاعب بالدين؛ فلو كان كذلك، لكان أسرع شيءٍ إلى مداهنة خصومه، وموافقتهم، ومنافقتهم.**

ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي، ولا يفتي بما اتفق، بل مسائله المفردة يحتج لها بالقرآن، أو بالحديث، أو بالقياس، ويبرهنها ويناظر عليها، وينقل فيها الخلاف، ويطيل البحث؛ أسوة من تقدمه من الأئمة، فإن كان قد أخطأ فيها؛ فله أجر المجتهد من العلماء، وإن كان قد أصاب؛ فله أجران.

وإنما الذم والمقت لأحد رجلين: رجلٍ أفتى في مسألة بالهوى، ولم يُبْدِ حجةً، ورجلٍ تكلم في مسألة بلا خميرةٍ من علم، ولا توسعٍ في نقل؛ فنعوذ بالله من الهوى والجهل.

ولا ريب أنه لا اعتبار بذم أعداء العالم؛ فإن الهوى والغضب يحملهم على عدم الإنصاف والقيام عليه. ولا اعتبار بمدح خواصه والغلاة فيه؛ فإن الحب يحملهم على تغطية هناته، بل





قد يعدوها محاسن. وإنما العبرة بأهل الورع والتقوى من الطرفين، الذين يتكلمون بالقسط، ويقومون لله، ولو على أنفسهم وآبائهم.

فهذا الرجل لا أرجو على ما قلته فيه دنيا ولا مالًا ولا جاهًا بوجه أصلًا، مع خبرتي التامة به، ولكن لا يسعني في ديني، ولا عقلي أن أكتم محاسنه، وأدفن فضائله، وأبرز ذنوبًا له مغفورةً في سعة كرم الله تعالى وصفحه، مغمورةً في بحر علمه وجوده، فالله يغفر له، ويرضى عنه، ويرحمنا إذا صرنا إلى ما صار إليه[1]. مع أني مخالف له في مسائل أصلية وفرعية[2]، قد أبديت آنفًا أن خطأه فيها مغفور، بل قد يثيبه الله تعالى فيها على حسن قصده، وبذل وسعه، والله الموعد. مع أني قد أوذيت لكلامي فيه من أصحابه وأضداده؛ فحسبي الله!

وكان الشيخ أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، رَبعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيحًا، سريع القراءة. تعتريه حدة، ثم يقهرها بحلم وصفح، وإليه كان المنتهى في فرط الشجاعة والسماحة وقوة الذكاء. ولم أر مثله في ابتهاله واستغاثته بالله تعالى، وكثرة توجهه. **وقد تعبت بين الفريقين: فأنا عند محبه مقصرٌ، وعند عدوه مسرفٌ مكثرٌ، كلا والله!**

---

(1) وهذا نص في كون كتابة هذه الترجمة بعد موته، بجانب ما جاء في آخرها من ذكر وفاته0

(2) قوله "مع أني مخالف له في مسائل أصلية وفرعية "

أما الفرعية: فسبيلها مستبين، وأما الأصلية: فلا يلزم من هذا الخلاف تضليلنا لأحدهما كما أراده بعض أهل البدع، فإن المسائل الأصلية ليست على رتبة واحدة من الظهور والقطعية، والمجتهد مغفور له خطؤه إن استفرغ وسعه في الوصول إلى الحق كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية في غير موضع من كتبه، وذكره الذهبي ها هنا، على أنه لا بد من الإشارة إلى أن أمهات المسائل الأصلية لا يوجد فيها خلاف بين ابن تيمية والذهبي إذ هما على منهج السلف فيها؛ وذلك كإثبات صفات الرب تبارك وتعالى وعدم التعرض لها بالتأويل والتحريف، وأن القرآن كلام الله على الحقيقة وأنه غير مخلوق،وكذا القول في مسألة " الإيمان"، و" الموقف من الصحابة"، وسبيلهما واحد أيضا في ذم أهل البدع من القبوريين، والقائلين بالاتحاد والحلول. ولكن هناك تحفظ للإمام الذهبي على بعض المسائل في باب الصفات، وله رأي في مسألة التبرك بآثار الصالحين مخالف لما يقرره ابن تيمية.





توفي ابن تيمية إلى رحمة الله تعالى معتقلًا بقلعة دمشق، بقاعة بها، بعد مرض جد أيامًا، في ليلة الاثنين، العشرين من ذي القعدة، سنة ثمانٍ وعشرين وسبع مئة.

وصلي عليه بجامع دمشق عقيب الظهر، وامتلأ الجامع بالمصلين كهيئة يوم الجمعة، حتى طلع الناس لتشييعه من أربعة أبواب البلد، وأقل ما قيل في عدد من شهده خمسون ألفًا، وقيل أكثر من ذلك، وحمل على الرؤوس إلى مقابر الصوفية، ودفن إلى جانب أخيه الإمام شرف الدين، رحمهما الله تعالى وإيانا والمسلمين" انتهى كلام الذهبي.

ولنا وقفات مع هذه الترجمة كما توقفنا مع الترجمة السابقة.

فإنه مع إغضائنا الطرف عن هذا الإطناب في المدح والثناء، وكيف يقال مثله في حق رجل مريض بأقبح أمراض القلوب التي قد تصل بصاحبها إلى الكفر: "**العجب والكبر وفرط الغرام** برياسة المشيخة" بحسب ما جاء في " زغل العلم"، إلا أن ثمة أمور في هذه الترجمة لا بد من التنويه إليها.

1- أنّ رأي الذهبي في سبب وقوع العداوة بين ابن تيمية وبعض علماء عصره مرده إلى ما كان في ابن تيمية من عيوبٍ هي: حدته في البحث، وشظفه على الخصم حتى كان ذلك يزرع له العداوة في النفوس، وأنه لو لازم الرفق والمجاملة= لصار كلمة إجماع عند علماء عصره.

وحتى لا يستدرك أحدٌ على الذهبي بأن مثل هذا لا يؤدي إلى عداوة يعقبها تفسيق وتكفير، أخبرَ أن كلامه في أهل الإنصاف من هؤلاء العلماء، أما الذين وصل بهم الأمر إلى تجهيله وتكفيره فهؤلاء ما فهموا، كما أنهم ليسوا من أهل الاطلاع التام، ومن ثم بادروا إلى التفسيق والتكفير بحقٍّ وباطلٍ، وعلى كل حالٍ: فكلامهم في ابن تيمية غير مقبول؛ لأن طريق السلامة السكوت عما كان بين الأقران.

هذا حاصل كلام الذهبي فأين هذا الكلام – وهو بعد موت ابن تيمية- من قول صاحب





الزغل: إن تكفير أولئك العلماء لابن تيمية وازدراؤهم به إنما كان عقوبةً إلهيةً نتيجة عجبه وكبره وفرط غرامه برياسة المشيخة؟!!

1-أخبرنا الذهبي أنه يأخذ على ابن تيمية تفرده ببعض المسائل في الفروع والأصول، وأخبرنا أنه يلتمس له العذر في ذلك؛ لأنه- ولخبرة الذهبي به- لم يكن يتفرد بهذه المسائل لهوًى أو من جهلٍ، بل حاله على خلاف ذلك، ومن هنا يوصي الذهبي مخالفي الرجل بالتماس العذر له كما التمسوه لكبار أئمتهم في مفرداتهم، ولم ينطق الذهبي ببنت شفة أن ابن تيمية كان فيه عيوب من عُجبٍ وكبرٍ وازدراءٍ بالأكابر وفرط غرامٍ برياسة المشيخة، وهذه لو كانت موجودةً في شخصٍ ما، ويعتقدها فيه رجلٌ مؤرخ يترجم له عنده أدنى درجات الأمانة العلمية في تقييم الشخصيات التي يترجم لها= لما وسعه أنه يسكت عنها0، ولا يتكلم في هذه الترجمة الموسعة.

2-أخبرنا الذهبي أنه وقع له إيذاءٌ بسبب رأيه وموقفه من ابن تيمية من أعداء ابن تيمية ومحبيه على حدٍّ سواء، وهذا أمرٌ غريبٌ، إذ المعروف أن الحاكم على شخص ما إما أن يكون من مادحيه فيواليه خواص ذلك الرجل ومحبوه ويبغضه أعداؤه ومخالفوه، أو يكون من قادحيه فيحبه أعداؤه ومخالفوه ويشنؤه خواصه وأتباعه، ولكن الذهبي أشار إلى السبب الذي كان وراء إيذائه من الطرفين، وهو: أن أعداء ابن تيمية يرون الذهبي يغالي في ابن تيمية بما يطلقه عليه من ألقاب ويذكره عنه من محاسن وفضائل، وأن خواص ابن تيمية ومريديه يرون الذهبي مقصرًا في حق إمامهم وشيخهم، فهو عندهم يستحق أضعاف أضعاف ما يقوله فيه الذهبي.

فلو كان الذهبي قد كتب يومًا أن ابن تيمية فيه عجب وكبر....إلخ، وعُرف عند الناس أن هذا هو رأي الذهبي المؤرخ الكبير في ابن تيمية الذي شغل الناس في زمانه وبعد زمانه، هل كان محبو ابن تيمية والمغالون فيه يصبح معولهم في تنكرهم للذهبي على مجرد تقصيره في مدحه والثناء عليه، أم يكون مستندهم في ذلك: أن الذهبي رمى ابن تيمية بتهمٍ عظيمةٍ خطيرةٍ في كتاب "زغل العلم والطلب" ؟؟ وهل كان أعداء ابن تيمية





يأخذون على الذهبي شيئاً في مدحه لابن تيمية وقد ذكر حقيقة أمر هذا الرجل وسبب الفتن التي وقعت له مع علماء عصره، وأن مرد ذلك إلى عيوبٍ أخلاقيةٍ وأمراضٍ قلبيةٍ تُذهب كل فضيلةٍ من علمٍ وذكاءٍ وزهدٍ وغيره؟؟

3-بتلاوة هذه الترجمة نعرف أن الذهبي قد كتب ما كتب في ابن تيمية عن قُرب من الرجل ودرايةٍ به ومعرفةٍ تامةٍ بأحواله، حيث قال:" مع خبرتي التامة به"، وأن ذلك كان عن تجردٍ تامٍّ للحق، لا لرجاء أي نوع من المنفعة الدنيوية، و لم يذكر فيما كتب عُجبًا وكبرًا....إلخ، على حين نرى أن **صاحب الزغل** قد كتب ما كتب أيضًا عن خبرة حصلت بعد تعب سنين في الوزن والتفتيش؛ لتقييم هذا الرجل الذي لم يزل يختلف فيه الناس إلى يومنا، لكن **صاحب الزغل** خرج برأيٍ مباينٍ كل المباينة لما كتب الذهبي المؤرخ الذي نعرفه. فهل لهذا معنًى سوى أنهما رجلان متغايران متباينان كتغاير رأييهما وموقفيهما من شيخ الإسلام؟ إي لعمر الحق: إنهما لكذلك. ومن حقنا بعد كل هذا أن نرفع عقيرتنا بقولنا لمن يثبتون صحة هذا النقد للذهبي: "ما لكم كيف تحكمون"؟!





الوجه الثاني

كما أسلفنا فقد ترجم الذهبي لابن تيمية في حياته وبعد مماته، فرأيناه يُتوّجُه بما سبق أن شنف أسماعنا من تلك الألقاب الفخمة، **كرباني الأمة، وحامل لواء الشريعة، وشيخ الإسلام** (1) وغيرها من النعوت التي لا تطلق إلا على الربانيين والعلماء العاملين، فكيف يقع منه هذا الإطراء البليغ مع قوله في هذه الرسالة: إنه **رجل مفرط في حب رياسة المشيخة ممتلئ بالعجب والكبر**؟! أي خيانةٍ لأمانة النقد أكبر من هذا حيث يذكر الرجل بأوصاف قل أن أطلقها على غيره من معاصريه، ثم لا يذكر هذا الداء العضال الذي لا يسكت عن مثله في مقام الترجمة المستوفية إلا مدلس يحابي ويجامل على حساب الأمانة التاريخية؟!

بل إننا لا نكاد نجد من المؤرخين المعاصرين للذهبي من أثنى على ابن تيمية كما أثنى هو عليه، وإذا أراد رجل مغرم بابن تيمية أن ينقل كلامًا فيه إطناب في مدحه وذكر شمائله وفضائله لم يجد ضالته عند أحدٍ كما يجدها عند الذهبي!!

فإذا قيل إن ذلكم الإطراء متقدم وقبل أن يكتشف الذهبي حقيقة هذا الرجل، فمع أنَّا بينَّا عدم معقولية هذا الاحتمال، إلا أن نتطوع بالردّ، ونقول: فكيف تفعلون مع التراجم التي سطرها الذهبي بعد موت ابن تيمية وفيها هذه الألقاب الضخمة والإطراءات الفخمة؟؟

(1) قال ابن ناصر في الرد الوافر (ص 35) " وترجمة أبي عبد الله الذهبي للشيخ تقي الدين بشيخ الإسلام أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر". فأي رجل مدلس الذهبي حيث يدخل في عداد شيوخ الإسلام رجلًا مليئًا بالعجب والكبر وفرط الغرام في رياسة المشيخة!!!!





ويقوي هذا الوجه ما هو معروف من سيرة ابن تيمية واشتمالها على المحنة بعد المحنة والفتنة بعد الفتنة، وأنه قد أدخل نفسه وأصحابه في بلاءٍ عظيمٍ بسبب آرائه ومواقفه، فإذا كان كل هذا سببه حب الظهور والعجب والكبر لا الجهاد ابتغاء مرضاة الله تعالى ونصرة لدينه، فهل يجمل بمؤرخ في رتبة الذهبي السكوت عن هذه الأمور في كل تراجم ابن تيمية التي بلغت تسع تراجم في كُتب الذهبي، بجانب ترجمة مفردة في سيرته، دعْ عنك ما ذكره عنه المؤرخون مما ليس بين أيدينا الآن؟ (1)

وإذا كانت ألقاب: "شيخ الإسلام" و " رباني الأمة "و"حامل لواء الشريعة" و" وهو أعظم من أن يصفه كلمي أو ينبه على شأوه قلمي "من السهولة بمكان عند مؤرخ كبير كالذهبي بحيث يطلقها على رجلٍ معجبٍ بنفسه متكبرٍ يسعى للمنصب والجاه، فهل سيكون في قاموسنا موضع لشيء اسمه علماء السوء؟؟!!

لا جرم قد أعاذ اللهُ الإمامَ الذهبي من كل ذلك.

(1) قال مرعي الكرخي في كتابه "الشهادة الزكية"(ص 39): "وقد ترجم الذهبي هذا ابن تيمية في عدة مواضع وأثنى عليه ثناء حسنا" وذكر بعضها ثم قال (ص 42) "وتراجم الذهبي لابن تيمية أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر، رحمه الله تعالى".





الوجه الثالث

تراجم الذهبي لابن تيمية بالمدح والثناء والنقد الموضوعي كثيرةٌ وفي مواضع عدة وأزمنة مختلفة، منها ما كتب في حياة الشيخ [1].

ومنها ما كتب بعد مماته [2].

ونَفَسُ الذهبي فيها واحد لم يتغير، وهو ترك الإسراف في المدح وعدم هضم حق ابن تيمية فيما يستحقه من الثناء، وهو ما أوقع الذهبي في حرجٍ مع المُغالين في الشيخ ومع أعدائه على حد سواء.

وعبّر هو عن ذلك بقوله بعد مدحه له: " ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير في وصفه، ومن نابذه وخالفه، فقد ينسبني إلى التغالي فيه، وليس الأمر كذلك"

وقال في نفس الترجمة: " مع أني قد أُوذيت لكلامي فيه من أصحابه وأضداده فحسبي الله!"

وفيها أيضا" وقد تعبت بين الفريقين: فأنا عند محبه مقصر، وعند عدوه مسرف مكثر، كلا والله"! [3].

فلم يوجد في أي منها هذه البلايا الموجودة في " زغل العلم "، حتى في التراجم المطولة، ولا في الترجمة المفردة أيضًا، ولم يذكر فيها هذه العيوب في موطنها حيث يتوسع في الكلام عن الرجل وما له وما عليه.

---

(1) كما في "الدرة اليتيمية".

(2) وهو أكثر التراجم كما يظهر من سياقها.

(3) ذيل تاريخ الإسلام"، وهو مخطوط، ونقلت منه بواسطة الجامع لسيرة شيخ الإسلام (خلال سبعة قرون) (ص 209)0





وفي ذات الوقت نجد الذهبي يكرر في تراجمه في مواطن كثيرة ما قاله في موطن ما، وهذه طبيعة كتب التراجم، حتى إنك لتجد بعض المؤرخين ينقل من كتابه إلى كتابه الآخر بلا زيادة ولا نقصان، بل وأكثر من ذلك أن بعض المؤرخين ينقل كلام غيره بلا زيادة ولا نقصان وبلا عزو أيضًا. والشاهد في هذا: أن كلام المؤرخ في الرجل ورأيه يتكرر معه إذا ترجمه في أكثر من موطن، وهذا ما تجده في صنيع الذهبي مع ابن تيمية في تراجمه من مدح وقدح؛ حيث يكرر مع تغيير في العبارة أو بزيادة ونقصان، ومع هذا فلا نجد أثرًا لتلك التهم في أي من مواطن الترجمة التسعة ولا في الترجمة المفردة!

فهذا علام يدل؟!





الوجه الرابع

عبارة صاحب القدح الوارد في الزغل " **رجل يقال له ابن تيمية"**، كافية- في نظري- في بطلان نسبة هذا الكلام للذهبي، لمن كان خبيراً بالذهبي ومذهبه وأسلوبه في التراجم، وعلاقته بابن تيمية، وأن قائلها لا يمكن أن يكون هو الذهبي المؤرخ الذي يعرفه ويعرف كتبه ومذهبه ونحلته وشيوخه!

أهذه طريقة الذهبي تلميذ ابن تيمية المتأثر به، والذي اختصر كتابه "منهاج السنة النبوية"، والذي يكثر من الإشارة إلى آراء ابن تيمية عند تعليقه على التراجم التي يذكرها في كتبه كتاريخ الإسلام أو سير أعلام النبلاء؟

ودونك – على سبيل التمثيل لا الحصر- من كتابه الشهير تاريخ الإسلام:

قال في "ترجمة ابن كلاب" (4 / 350):" قال شيخنا ابن تيمية: كان له فضل وعلم ودين".

وفي "ترجمة محمد ابن جرير" (5 / 350):" وذهب شيخنا ابن تيمية، وهو من أهل الاجتهاد لاجتماع الشرائط فيه أن الحالف على شيء بالطلاق لم تطلق منه امرأته بهذه اليمين، سواء حنث أو برّ...".

وفي ترجمة "أبي طاهر العلوي": (7 / 143):" سألت شيخنا ابن تيمية عن مذهب السالمية فقال: "هم قوم من أهل السنة في الجملة..."،

وذكر أحوال المشعوذين فقال (11 / 255):" وقد صنف شيخنا ابن تيمية غير مسألة في أن أحوال هؤلاء وأشباههم شيطانية".

أهذه طريقة الذهبي المتأدب مع شيخه ابن تيمية، والذي يغلب عليه أن يصدر اسمه بـــ"شيخنا" أو "الشيخ تقي الدين"؛ هكذا فعل في ترجمة مجد الدين جد أبي البركات جد ابن تيمية، وفي ترجمة والد ابن تيمية الشيخ عبد الحليم، إذ قال في الأول :جد شيخنا، وفي الثاني: والد شيخنا، بل الأمر أكثر من ذلك؛ فعندما يترجم لشخص ويكون ممن





أخذ عنه المزي والبرزالي وابن تيمية وهذه الطبقة يخص ابن تيمية بقوله: "وشيخنا" قال في" ترجمة علي بن بلبان" (13 / 141): "سمع منه : شيخنا ابن تيمية، والمزي، والبرزالي، وأبو القاسم بن حبيب، وشهاب الدين ابن المجد الشافعي، وأبو عبد الله بن الصوفي، وخلق كثير ".وفي ترجمة عبد الرحمن بن يوسف بن محمد بن نصر ابن أبي القاسم: (13 / 263):" روى عنه : ابن الخباز، وابن العطار، وشيخنا ابن تيمية، والمزي، والبرزالي، وخلق سواهم" وفي ترجمة إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل (13 / 478): قلت : سمع منه البرزالي، وابن سيد الناس، وقطب الدين الحلبي، والمزي، وابنه، والشهاب ابن النابلسي، وابن المهندس، وشيخنا ابن تيمية، وإخوته".

أهذه طريقة الذهبي المشهور عنه التأثر بمذهب ابن تيمية الاعتقادي وأخذه ذلك عنه، حتى خرج عن المذهب الأشعري السائد في عصره هو والبرازلي والمزي وجماعة بسبب ابن تيمية، كما يحكي ذلك تاج الدين السبكي متحسراً، قائلاً: " واعلم أن هذه الرفقة؛ أعني: المزي والذهبي والبرزالي وكثيرا من أتباعهم أضر بهم أبو العباس ابن تيمية إضرارًا بينًا، وحملهم على عظائم الأمور أمرًا ليس هينًا وجرهم إلى ما كان التباعد عنه أولى بهم، وأوقفهم في دكادك من نار، المرجو من الله أن يتجاوزها لهم ولأصحابهم" انتهى [(1)].

أهذه طريقة الذهبي الذي اشتهر من سيرته تضرره بصحبة ابن تيمية واعتناق مذهبه حتى حرم من بعض المناصب من أجل ذلك؟ كما ذكر ابن السبكي أنه لما شغرت مشيخة دار الحديث الأشرفية بوفاة الحافظ المزي عين والده تقي الدين السبكي الذهبيَ لها، فتكلم بعضهم في حق

(1) طبقات الشافعية الكبرى (400/10)0

وقال السبكي أيضًا وقد أورد المناظرة المشهورة بين الجبائي وأبي الحسن الأشعري وقال: " هذه مناظرة شهيرة، وقد حكاها شيخنا الذهبي، وهي دامغة لأصل من يقلده؛ لأن الذي يقلده يقول: إن الله لا يفعل شيئًا إلا بحكمة باعثة له على فعله، ومصلحة واقعة، وهو من المعتزلة في هذه المسألة، فلو يدري شيخنا هذا، لأضرب عن ذكر هذه المناظرة صفحًا". ويقصد بمن يقلده: شيخ الإسلام ابن تيمية القائل بتعليل الأحكام.

انظر: طبقات الشافعية الكبرى (3 / 356)



الذهبي بأنه ليس بأشعري، وأن المزي ما وليها إذ وليها إلا بعد أن كتب خطه وأشهد على نفسه بأنه أشعري العقيدة، و لم ينته الأمر إلا بتولية السبكي نفسه، و لم يتولها الذهبي لهذا السبب [1].

أهذه طريقة الذهبي الذي طعن بعضهم في مصداقيته في تراجمه للأشاعرة بسبب تأثره بآراء ابن تيمية [2]، أو بسبب أن بعض المترجم له كان ينتقص ابن تيمية فتحامل الذهبي عليه لأجل ذلك[3]

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى (200/10)

(2) انظر: "طبقات الشافعية الكبرى" (103/9).

قال ابن السبكي:" وكان شيخنا والحق أحق ما قيل، والصدق أولى ما آثره ذو السبيل، شديد الميل إلى آراء الحنابلة، كثير الإزراء بأهل السنة الذين إذا حضروا كان أبو الحسن الأشعري فيهم مقدم القافلة؛ فلذلك لا ينصفهم في التراجم، ولا يصفهم بخير إلا وقد رغم منه أنف الراغم".

وقال: " وأما تاريخ شيخنا الذهبي – غفر الله له – فإنه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصب المفرط لا واخذه الله، فلقد أكثر الوقيعة في أهل الدين؛ أعني: الفقراء الذين هم صفوة الخلق، واستطال بلسانه على أئمة الشافعيين والحنفيين، ومال فأفرط على الأشاعرة، ومدح فزاد في المجسمة، هذا وهو الحافظ المدره، والإمام المبجل، فما ظنك بعوام المؤرخين"

وقال أيضًا: "...ونقلت من خط الحافظ صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي رحمه الله ما نصه الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي، لا أشك في دينه وورعه وتحريه فيما يقوله الناس، ولكنه غلب عليه مذهب الإثبات، ومنافرة التأويل، والغفلة عن التتريه حتى أثر ذلك في طبعه انحرافًا شديدًا عن أهل التتريه وميلًا قويًّا إلى أهل الإثبات" "طبقات الشافعية الكبرى"(13/2).

(3) في "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر"(74/2) في ترجمة تنكز نائب الشام: قال ابن حجر بعد نقله لكلام الذهبي في هذا الرجل: " وتعقبه الحافظ صلاح الدين العلائي بحاشية قرأهّا بخطه: لقد بالغ المصنف وتجاوز الحد في ترجمة تنكز وأين مثله" وعدد محاسنه أعني: العلائي، إلى أن قال:" ذنب تنكز أنه كان يحط كثيرًا على ابن تيمية وفي هذه الأشياء كفاية" انتهى.

قال الحافظ: " قلت قوله: إن الذهبي أعرض عن محاسن تنكز ليس بصحيح" انتهى.



الوجه الخامس

إذا قمنا بعمل مقارنة بين بعض عبارات هذا الانتقاد المظلم وبعض العبارات المقابلة لها من تراجم الذهبي لابن تيمية، والتي لها نفس التعلق والمناط= سنجد مفارقات فجة، فمن ذلك:

المفارقة الأولى:

في الفقرة الأولى من النقد المنسوب للذهبي في الزغل: " فما وجدت قد أخره بين أهل مصر والشام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه، إلا الكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار. فانظر كيف وبال الدعاوي ومحبة الظهور". انتهى

فصاحب هذا الكلام يرى أن قيام شيخ الإسلام ابن تيمية فيما قام به من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة البدع حتى أصابه من المحن ما أصابه، إنما كان باعثه عليه: **محبة الظهور، وفرط الغرام بالرياسة.**

فلننظر في كلام الذهبي في تراجمه لابن تيمية ورأيه في جهاده:

قال في معجم الشيوخ:"...وأُوذي في **ذات اللّه** من المخالفين، وأُخيف في نصر السنة المحضة، حتى أعلى الله مناره، **وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وَكَبَتَ أعداءه**، وهدى به رجالًا من أهل الملل والنحل " [1]

وقال بعد أن ذكر محنته بسبب الفتوى الحموية:" **وكان غضبه فيها لله ولرسوله** باجتهاده، فانتفع بها أناس وانفصم بها آخرون و لم يحملوها [2].

(1) ذيل طبقات الحنابلة (1 / 339)0

(2) تاريخ الإسلام للذهبي (13 / 401)0





وقال:" **ولا هو بمتلاعب بالدين**؛ فلو كان كذلك؛ لكان أسرع شيء إلى مداهنة خصومه، وموافقتهم، ومنافقتهم.

ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي، ولا يفتي بما اتفق، بل مسائله المفردة يحتج لها بالقرآن، أو بالحديث، أو بالقياس، ويبرهنها ويناظر عليها، وينقل فيها الخلاف، ويطيل البحث؛ أسوة من تقدمه من الأئمة، فإن كان قد أخطأ فيها؛ فله أجر المجتهد من العلماء، وإن كان قد أصاب؛ فله أجران.

وقال: " مع أني مخالف له في مسائل أصلية وفرعية، قد أبديت آنفًا أن خطأه فيها مغفور، بل قد يثيبه الله تعالى فيها على **حسن قصده** وبذل وسعه، والله الموعد" [1]

وقال: " **كان رباني الأمة وفريد الزمان وحامل لواء الشريعة** وصاحب معضلات المسلمين، وكان رأسًا في العلم يبالغ في إطراء قيامه في الحق والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبالغةً ما رأيتها ولا شاهدتها من أحد ولا لحظتها من فقيه " [2]

وقال: "...حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قيامًا لا مزيد عليه، وبدعوه وناظروه وكاتبوه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته في السنن والأقوال، **مع ما اشتهر منه من الورع** وكمال الفكر وسعة الإدراك، **والخوف من الله العظيم، والتعظيم لحرمات الله**؛ فجرى بينه وبينهم حملات حربية ووقعات شامية ومصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه الله تعالى، **فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، قوي التوكل**، ثابت الجأش، له **أوراد وأذكار يدبجها بكيفية وجمعية**" [3].

---

(1) ذيل تاريخ الإسلام"، بواسطة "الجامع لسيرة شيخ الإسلام" (خلال سبعة قرون)(ص 209).

(2) العقود الدرية "(ص39).

(3) الرد الوافر (ص 34).





فإذا تأملت هذه العبارات " **غضبه فيها لله ورسوله**"، "**حسن قصده وبذل وسعه**"، "**في ذات الله**"،" مع ما **اشتهر منه من الورع**"،" **والخوف من الله العظيم** والتعظيم لحرمات الله"،" **ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي**"،" **ولا هو بمتلاعب بالدين**"

فهل يبقى لديك ريبٌ أن قائل هذا الكلام ليس هو قائل: " وما سلطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم بل **بذنوبه**، وما دفعه الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون فلا تكن في ريب من ذلك"؟

المفارقة الثانية:

وقوله في النقد:" وفرط الغرام في **رئاسة المشيخة**"، لا يُدرى ما هذا!!، فابن تيمية لم يكن يومًا من طلاب الوظائف- وهذا من أسباب ثباته وقوته في مواقفه- ولو كان كذلك فلمَ لمْ يصل إليها ؟ وهل كان في الحنابلة، بل في غيرهم، من يساويه أو يقاربه في العلم؟

فابن تيمية كما قال الذهبي: " ناظر واستدل وهو دون البلوغ، وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرس وله نحو العشرين سنة، وصنف التصانيف وصار من كبار العلماء في حياة شيوخه" [1].

صدق الأول حيث قال:

لي حيلة فيمن يَنُمُّ وليس لي في الكذاب حيلة من كان يخلق قوله حيـــــلتي فيه قليلة

وهل هذه السبيل التي سلكها ابن تيمية سبيل رجل يريد المناصب أو تخطر بباله المناصب؟! فمعروف عند كل العقلاء فضلًا عن حذاق الأذكياء كشيخ الإسلام، أنْ لا أقل لطالب ذلك من ملاينة وموافقة مَن بأيدهم هذه المناصب، وأنّ الدخول في معاداتهم ومخالفتهم مما يحول بين طالب هذه الأمور وبين إدراكها.

---

(1) هكذا قال الذهبي، انظر:" العقود الدرية"(ص38).





وسبحان الله! قد نص الذهبي على هذا في حق ابن تيمية، قائلًا :"... ولا هو بمتلاعبٍ بالدين؛ فلو كان كذلك، لكان أسرع شيء إلى مداهنة خصومه، وموافقتهم، ومنافقتهم"[1].

فلا ريب أن وصف ابن تيمية بفرط الغرام في رياسة المشيخة: كذب وإفك مفترى قاله شانئ لابن تيمية، وأبعد الناس من قوله هو الذهبي رحمه الله تعالى.

- وفي ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (795) في ترجمة ابن تيمية:

"وقد عُرض عليه **قضاء القضاة قبل التسعين، ومشيخة الشيوخ** فلم يقبل شيئًا من ذلك. قرأت ذلك بخطه" [2].

المفارقة الثالثة:

وقوله في الفقرة الأولى من الانتقاد الوارد في الزغل:" والازدراء بالكبار". والحق أن هذا رأي كثير من أعداء ابن تيمية من المعطلة والصوفية، ومقصودهم بالكبار أرباب المقالات الكلامية والطرق الصوفية الذين لهم من الآراء والأحوال والأقوال ما يخالف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم عندهم كالمعصومين ومَن انتقدهم فقد ركب الذنب المبين. ولكن رأيهم هذا بضدِ رأي الذهبي في موقف ابن تيمية من الرجال، فقد صرح الذهبي أن غالب كلام ابن تيمية في أولئك الناس هو فيه مصيبٌ.

قال ابن رجب:" قال الذهبي: وغالب حطه على الفضلاء والمتزهدة فبحق، وفي بعضه هو مجتهد، ومذهبه توسعة العذر للخلق، ولا يكفر أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه" [3].

المفارقة الرابعة:

في الفقرة الثانية من النقد ذكر أن ابن تيمية: " كان قبل أن يدخل في هذه الصناعة منورًا مضيئًا على محياه سيما السلف، ثم صار مظلمًا مكسوفًا عليه، قتمة عند خلائق من الناس،

(1) ذيل تاريخ الإسلام" بواسطة " الجامع لسيرة شيخ الإسلام" (ص 209)
(2) ذيل طبقات الحنابلة" (1 / 339)0
(3) ذيل طبقات الحنابلة" (1 / 341.





ودجالًا أفاكًا كافرًا عند أعدائه، ومبتدعًا فاضلًا محققًا بارعًا عند طوائف من عقلاء الفضلاء، **وحامل راية الإسلام، وحامي حوزة الدين، ومحيي السنة عند عوام أصحابه** ".

مقتضى هذا الكلام أن كون ابن تيمية حامل راية الإسلام ومحيي السنة إنما هو رأي لعوام أصحابه فحسب، ودون سائر الناس الذين انقسموا في أمره مذاهب شتى، وأنهم- أي عوام أصحابه- غلوا في وصفه، وبالغوا في قدره، و لم يكتفوا فيه برأي عقلاء الفضلاء، وكل هذا ذم لهم بلا شك.

فلنُلقِ نظرةً على تراجم الذهبي لابن تيمية؛ لنعرف من حكمه عليه إلى أي الطوائف ينتمي في حكمه على ابن تيمية0

قال في "تذكرة الحفاظ":" ابن تيمية الشيخ **الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع، شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر**".

وقال في "معجم المحدثين" :"فريد العصر بحر العلوم"[1].

وقال في "معجم الشيوخ" :"...وأُوذي في **ذات اللّه** من المخالفين، **وأُخيف في نصر السنة المحضة، حتى أعلى الله مناره**، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وَكَبَتَ أعداءه، وهدى به رجالًا من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالبًا، وعلى طاعته، **أحيا به الشام، بل والإسلام، بعد أن كاد ينثلم**"[2]

ونقل عنه ابن رجب في" ذيل طبقات الحنابلة" قوله فيه:" **ولقد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية**" [3].

وفي "الرد الوافر" لابن ناصر (ت 842): " وكتب الحافظ الذهبي أيضًا طبقة سماع كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام على مؤلفه الشيخ تقي الدين، والطبقة آخر الكتاب، فقال سمع

---

(1) معجم المحدثين(25/1)0

(2) كذا نقله عنه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة" (390/2)، وهو غير المعجم المطبوع، فإن للذهبي ثلاثة معاجم.

(3) ذيل طبقات الحنابلة (1 / 341)





هذا الكتاب على مؤلفه شيخنا الإمام العالم العلامة الأوحد: **شيخ الاسلام، مفتي الفرق، قدوة الأمة، أعجوبة الزمان، بحر العلوم، حبر القرآن، تقي الدين، سيد العُباد** أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني رضي الله تعالى عنه وذكر بقية الطبقة" [1] انتهى.

وقال الذهبي أيضًا: "وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه أن يقال: **كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث** ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف من بحر وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي" [2].

وقال صاحب العقود الدرية: ذُكر عن الذهبي قوله في ابن تيمية:

"فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، وسرد وأبلسوا، واستغنى وأفلسوا، وإن سمي المتكلمون فهو فردهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فَلّهم وتَيَّسهم **وهتك أستارهم وكشف عوارهم**"

وفي نفس الموضع "**وهو أعظم من أن يصفه كلمي أو ينبه على شأوه قلمي**".

فلننظر في هذه **الإطلاقات والألقاب الكبيرة:** "شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر"، فريد العصر بحر العلوم" " أحيا به الشام، بل والإسلام، بعد أن كاد ينثلم"، " ولقد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية"، "شيخ الاسلام مفتي الفرق قدوة الأمة أعجوبة الزمان بحر العلوم حبر القرآن تقي الدين سيد العباد" " كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث" " وهو أعظم من أن يصفه كلمي أو ينبه على شأوه قلمي"

فهل عند هؤلاء الأصحاب الذين عابهم صاحب الزغل أكثر من ذلك؟!

---

(1) الرد الوافر (ص32).

(2) العقود الدرية (ص40)





أم ترى الرجل يعيب نفسه وهو لا يدري، إن كان الذهبي هو صاحب النقد حقًّا؟

المفارقة الخامسة:

وقول صاحب النقد:"... **وحامل راية الإسلام وحامي حوزة الدين ومحيي السنة عند عوام أصحابه**" على الخصوص مما يسترعي الانتباه، فقد قال الذهبي مادحًا ابن تيمية كما نقله عنه صاحب "العقود الدرية: "**رباني الأمة وفريد الزمان وحامل لواء الشريعة وصاحب معضلات المسلمين** [1].

فأنت ترى الذهبي يطلق على ابن تيمية:**"حامل لواء الشريعة"**، وصاحب النقد الذي بالزغل جعل ذلك رأي عوام أصحابه، فهل قائل الكلامين واحد؟ أم هما رجلان: أحدهما الذهبي محب ابن تيمية، والثاني رجلٌ آخر مبغض لابن تيمية؟!!

المفارقة السادسة:

صاحب رسالة "زغل العلم" يرى أن سيده (عبد الله بن خليل) هو المثال العصري للعا لم الرباني الذي جمع بين العلم والعمل، وأن ابن تيمية هو المثال العصري لعا لم السوء المعجب المتكبر، لكن الذهبي -رحمه الله تعالى- له رأي مغاير حيث يرى أن ابن تيمية من العلماء العاملين، حيث قال فيه:

"فو الله ما مقلت عيني مثله ولا رأى هو مثل نفسه.... **لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه** " [2].

وقال: " **قدوة الأمة أعجوبة الزمان** بحر العلوم حبر القرآن تقي الدين **سيد العُبّاد**" [3].

وقال: "**رباني الأمة وفريد الزمان** وحامل لواء الشريعة وصاحب معضلات المسلمين"[4]

---

(1) العقود الدرية (ص38).

(2) المعجم المختص (ص 25).

(3) نقله ابن عبد الهادي في العقود الدرية(ص 32).

(4) العقود الدرية (ص 38).





الوجه السادس

معروف لدى القاصي والداني أن الذهبي تيمي المذهب والمشرب، وتأثره بشخصية ابن تيمية وبأفكاره مما اشتهر وتناقله اللاحق عن السابق، وقد وجدنا الذهبي يعتب على من تكلم في حق ابن تيمية، ويعيب عليه ذلك.

قال الذهبي رحمه الله في ترجمة نصر المنبجي (ت 719 هــ) الذي كان يتغالى في ابن عربي (ت 638هــ) ويعادي شيخ الإسلام ابن تيمية من أجل ذلك:

"...ولقد جلست مع الشيخ نصر بزاويته، وأعجبني سمته وعبادته، **ونقل إليه أوباش عن شيخنا ابن تيمية: أنه يحط على الكبار، فبنى على ذلك! فهلا اتعظت في نفسك بذلك؟ ولم تحط على ابن تيمية، فإنه والله من كبار الأئمة** " [1].

وعتب الذهبي على صديقه تقي الدين السبكي (ت 756)، بعض ما صدر منه في حق ابن تيمية، فكتب إليه السبكي يعتذر عن ذلك.

جاء في ذيل طبقات الحنابلة: كتب العلامة تقي الدين السبكي إلى الحافظ الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين بن تيمية: " فالمملوك يتحقق قدره وزخارة بحره وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده، وأنه بلغ من ذلك كل المبلغ الذي يتجاوزه الوصف، والمملوك يقول ذلك دائمًا وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأَجَلّ، مع ما جمعه الله له من **الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه، وجريه على سنن**

(1) ذيل تاريخ الإسلام ص196، نقلا عن رسالة:" أضواء على الرسالة المنسوبة إلى الحافظ الذهبي "ص 12





السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان"[1]. انتهى

فيا لله العجب! كيف يكون الذهبي قد رمى شيخه ابن تيمية بهذه الأوصاف القبيحة، ثم يعتب على مَن ذمه وعابه؟!

وكيف يكون مخالفُه وخصمه قد وصفه بالقيام في نصرة الحق لا لغرض سوى نصرة الحق، وأنه جرى على سَنن السلف وبلغ في ذلك أبلغ المنازل حتى غدا صورةً غريبةً في زمانه بل وفي أزمان؛ ويكون تلميذه وصاحبه الذي لام وعتب على مخالفه وخصمه لحطه عليه — قد وصفه بأنه قام في ذلك من أجل حب الظهور وفرط الغرام بالرياسة والمشيخة، زيادةً على تطبعه بأخبث القبائح: العجب والغرور؟!

وهلا كتب السبكي إلى الذهبي بدلًا من اعتذاره له ومدحه لابن تيمية- هلا كتب إليه: كيف تلومني على حطي عليه وذمي له، وأنت قد وصفته بالعجب والكبر وسوء الطوية؟

أتنهاني عن أمرٍ وتأتيه؟!!

---

(1) ذيل طبقات الحنابلة (2 / 312)، شذرات الذهب (83/6).





الوجه السابع

موضوع رسالة زغل العلم هو آفات العلم وعيوب الطوائف المنتسبة إليه، ولم يذكر صاحبها في الرسالة كلها شخصًا بعينه في معرض الذم إلا ابن تيمية في هذين الموضعين المشار إليهما، فما الحامل على هذا؟ وهل خلا عصر الذهبي من علماء السوء الذين يصلحون أمثلة لتحذير الطلاب من طريقتهم غير شيخه ابن تيمية، الذي أخبر الذهبي في غير موضع من كتبه عند ترجمته له:" أنه لو حلف بين الركن والمقام لقال: إنه لم تر عينه مثله ولا رأى هو مثل نفسه"؟!! [1].

أليس في هذا برهانٌ على أن هذا النقد المظلم رقمه خصمٌ من خصوم ابن تيمية ليشفي غيظ قلبه منه؟!

(1) انظر أمثلة ذلك في "تذكرة الحفاظ" (4 / 1496) قال:" فما رأيت مثله"، وفي "المعجم المختص" (ص25):" ومع هذا فو الله! ما مقلت عيني مثله ولا رأى هو مثل نفسه"، وفي ذيل طبقات الحنابلة (1 / 339) نقلًا عنه: " وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام، لحلفت: إني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه".





الوجه الثامن

أين كان هذا النقد من أعين المؤرخين الذين منهم أشعرية ومنهم صوفية ومنهم غير ذلك، كما أن منهم من عُرِفَ بنقل كل ما يقال في المترجم له من حق وباطل، وغاية ما عندهم إذا لم يوافقوا على بعض ما نُقِل أن يجيبوا عنه ويردوا عليه. والمطالع في كتاب "الدرر الكامنة " لابن حجر (852) يعرف ذلك جيدًا، بل قد وقع هذا على الخصوص في ترجمة شيخ الإسلام؛ حيث نقل ابن حجر عن بعض المؤرخين كلامًا فيه مدح عظيم لشيخ الإسلام، وعن بعض آخر كلامًا فيه قدح وحط عليه، فكان كلام الذهبي يقع في زاوية المديح و لم ينقل عنه حرفًا من هذا الكلام، بل إنه وقع في جانب القدح الذي نقله كلامٌ قاله الآقشهري(731) حاصله: أن ابن تيمية لما كان يجلس في المجلس ويحدث فيه بما لا يستطيعه غيره في مجالس، كأن العلوم بين عينيه يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء، أوجب له ذلك عجبًا وزهوًا على أبناء جنسه...إلخ، و لم يردف ابنُ حجر هذا الكلامَ بما جاء في الزغل مع أنه أصرح وأقوى وأشنع، ومن مؤرخ أكبر وأشهر من الآقشهري؛ أعني: الذهبي، مع أن الحافظ ابن حجر قد عزا زغل العلم للإمام الذهبي!

فهب أن مَن يحب ابن تيمية من المؤرخين سكت عن هذا النقد وكتمه، فهل تمالأ عليه معهم مَن كان أشعريًّا أو صوفيًّا؟

وقد وجدنا المؤرخين من الأشاعرة والصوفية يعيبون على ابن تيمية في ترجمتهم له ما خالفهم فيه، ثم يترحمون عليه، وما نقل أحد منهم عن الذهبي قدحه فيه لعُجبه وكبره وفرط غرامه برئاسة المشيخة.

فأين كان كلام الذهبي هذا عند ترجمة هؤلاء لشيخ الإسلام، والموطن موطنه، والوقت وقته؟!!





الوجه التاسع

أين كان النقد المظلم غائبًا عن أعين مبغضي ابن تيمية ليتناقلوه عند ذمهم ونقدهم له؟! ولنلق نظرة على كتاب "دحض شُبَه من شَبَّه وتمرد وانتسب إلى مذهب أحمد لـــ" تقي الدين الحصني(ت 839) [1] فقد ملأ كتابه بسب ابن تيمية ولعنه وتفسيقه وتكفيره، و لم يدخر وسعًا في تنقصه ورميه بعظائم أخلاقية كالكذب والاحتيال وخداع العامة والعلماء، ومع ذلك، لم ينقل عن الذهبي فيما يتعلق بابن تيمية إلا قوله:" وذكر الشيخ الإمام العلامة شمس الدين الذهبي بعض محنته، وأن بعضها كان في سنة خمس وسبعمائة، وكان سؤالهم عن عقيدته وعما ذكر في الواسطية وطُلِب وصورت عليه دعوى المالكي، فسجن هو وأخواه بضعة عشر شهرًا ثم أخرج ثم حبس في حبس الحاكم وكان مما ادعى عليه بمصر أن قال: الرحمن على العرش استوى حقيقة وأنه تكلم بحرف وصوت، ثم نودي بدمشق وغيرها: مَن كان على عقيدة ابن تيمية حل ماله ودمه" [2].

وكيف لم يذكره ابن حجر الهيتمي المكي (974) وبغضه وتضليله لابن تيمية مشهور، كما في فتاواه الحديثية، وقد نقل فيها رسالة من أحد معاصري ابن تيمية يذمه فيها ويرميه بالحط على السلف.

---

(1) وهو من أشهر من عرف ببغض ابن تيمية مع أنه لم يعاصره، بل هو في طبقة تلاميذ تلاميذه، وهي بعينها طبقة شيوخ الحافظ ابن حجر، ولشهرة عداوته لابن تيمية فغالب من يترجم للحصني يذكر هذه العداوة وينبه عليها، والحصني لا يتورع عن رمي ابن تيمية بالعظائم والكفر والزندقة. وعند الله تجتمع الخصوم.

(2) "دفع شبه من شبه وتمرد" (ص47). وفي "الضوء اللامع" للسخاوي (5 / 269) عند ترجمة الحصني:"...وذكره المقريزي في عقوده باختصار وقال: إنه كان شديد التعصب للأشاعرة منحرفًا عن الحنابلة انحرافًا يخرج فيه عن الحد، فكانت له معهم بدمشق أمور عديدة، وتفحش في حق ابن تيمية، وتجهر بتكفيره من غير احتشام، بل يصرح بذلك في الجوامع والمجامع بحيث تَلَقَّى ذلك عنه أتباعه واقتدوا به؛ جريًا على عادة أهل زماننا في تقليد من اعتقدوه، وسيعرضان جميعًا على الله الذي يعلم المفسد من المصلح، و لم يزل على ذلك حتى مات عفا الله عنه" ا.ه





فقائمة المبغضين، بل والمفسقين والمكفرين، ليست قصيرة؛ فكيف يغيب عنهم – وبعضهم من أهل العلم والاطلاع – نص عظيم في حقيقة عدوهم ابن تيمية، وهم يرمونه بهذه التهمة دائمًا (تهمة العجب والكبر)، وهذا النص من إمام كالذهبي– مجمع على إمامته في نقد الرجال – يعتبر مستندًا مهمًّا وعظيمًا في تأييد كلامهم وأن لهم في كلامهم سلفًا، بل رجلًا معدودًا في تلاميذ ابن تيمية ومُحبيه؟

فلماذا لم يفعل خصوم ابن تيمية بالأمس ما فعله خصومه اليوم، فإنهم طاروا بهذا النقد كما أسلفنا وأذاعوه، وتمسكوا به دليلًا خطيرًا وبرهانًا مبينًا على زيغ ابن تيمية!

وبعد، فهذه الوجوه التسعة المذكورة آنفا إن كان مثلها لا يُعد نكارةً وشذوذًا يوجبان القدح في نسبة هذا الكلام للذهبي، فليس في الدنيا شيء يسمى نكارةً أو شذوذًا!!





الوجه العاشر

في مخالفة ما جاء في الزغل لشهادة العلماء والحفاظ والمؤرخين المعاصرين لشيخ الإسلام ابن تيمية.

إن هذه التهم القبيحة في حق ابن تيمية التي حوتها رسالة " زغل العلم" مخالفة لما نقله المؤرخون المشهورون، ولما ذكره شيوخ الإسلام؛ الأئمة العدول الثقات الأثبات الحفاظ الذين خالطوا شيخ الإسلام ابن تيمية، وعرفوه عن قرب: كالمزي والبرزالي وعماد الدين الواسطي وابن القيم وابن كثير وابن عبد الهادي وأبي حفص البزار وابن سيد الناس وابن فضل العمري وابن الوردي والذهبي- نفسه- وغيرهم، حتى مخالفيه، ممن خالطه وعرفه؛ فكل هؤلاء وغيرهم ما ذكروا عنه العجب والكبر أو الغرام برئاسة المشيخة، بل نقل بعضهم من أحواله وأقواله ما يدل على التواضع الشديد والتبري من الدعاوي، وأثني عليه بعضهم بألقاب وصفات لا يمكن أن يلقب بها أو ينعت بها مَن فيه تلك الخصال الذميمة التي ذكرها ذلك الشانئ في زغله.

فماذا عَسى الأعداءُ أن يتقوَّلوا عليَّ، وعِرضي ناصِحُ الجيبِ وافِرُ؟

وسأورد فيما يلي شيئا مما نقلوه لنا من أحواله وأقواله التي تدل على تواضعه وزهده في الرئاسة والمناصب، بل والدنيا بأسرها، ثم شيئا مما أثنوا به عليه في دينه وتقواه من جميل الصفات، وحميد الخصال، وفريد النعوت والألقاب، مما لا ينبغي أن يُطلق مثله على معجب ومتكبر وطالب رئاسة.

وقد يستطيع الإنسان أن يتكلف بعض الأخلاق ويظهر بغير ما هو عليه في نفس الأمر أحيانا، لكنه لا يقدر أن يلازم شيئاً ليس من طبعه ولا من أخلاقه على الدوام، وإذا كان بإمكان المرء أن يخدع الغرباء بتكلفه وتصنعه فهو غير قادر على خداع من يلازمه ويعاشره،





وقد حكى لنا من خالط شيخ الإسلام أو لازمه من أخباره وأحواله ما يدل على تواضعه الجم، وزهده وورعه، وإخلاصه لربه، واستعانته به، وتبرئه من حول نفسه وقوته.

أولًا: ما نُقِل من سيرة شيخ الإسلام مما يبرهن على ملازمته للتواضع والزهد في الرئاسة ومجانبة العجب والكبر

الجهة الأولى: ما نقل فيما يتعلق بتواضعه ومجانبته للكبر:

1- عقد الحافظ **عمر بن علي البزار**(ت 749 ه) في كتابه "الأعلام العلية" فصلا في إيثار شيخ الإسلام وتواضعه، قال فيه:

" **وأما تواضعه فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك**؛ كان يتواضع للكبير والصغير والجليل والحقير والغنى الصالح والفقير، وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء حتى أنه ربما خدمه بنفسه، وأعانه بحمل حاجته جبرا لقلبه وتقربا بذلك الى ربه.

وكان لا يسأم ممن يستفتيه أو يسأله بل يقبل عليه ببشاشة وجه ولين عريكة ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيرا كان أو صغيرا، رجلا أو امرأة، حرا أو عبدا، عالما أو عاميا، حاضرا أو باديا، ولا يَجْبَهه ولا يحرجه، ولا ينفره بكلام يوحشه بل يجيبه ويفهمه، ويُعرّفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط.

وكان يلزم التواضع في حضوره من الناس ومغيبه عنهم في قيامه وقعوده ومشيه ومجلسه ومجلس غيره....

إلى أن قال: " وأظهر لي من حسن الأخلاق **والمبالغة في التواضع** بحيث أنه كان إذا خرجنا من مترله بقصد القراءة يحمل هو بنفسه النسخة ولا يدع أحدا منا يحملها عنه وكنت أعتذر اليه من ذلك خوفا من سوء الأدب، فيقول: لو حملته على رأسي لكان ينبغي، ألا أحمل ما فيه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!



وكان **يجلس تحت الكرسي ويدع صدر المجالس** حتى إني لأستحي من مجلسه هناك وأعجب من شدة تواضعه ومبالغته في إكرامي بما لا استحق ورفعي عليه في المجلس ولولا قراءتي حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعظم حرمتها لما كان ينبغي لي ذلك.

وكان هذا حاله في التواضع والتنازل والإكرام لكل من يرد عليه أو يصحبه أو يلقاه حتى أن كل من لقيه يحكي عنه من المبالغة في التواضع نحوا مما حكيته وأكثر من ذلك، فسبحان من وفقه وأعطاه وأجراه على خلال الخير وحباه " [1].

وقال في موضع آخر قبل ذلك الفصل:" وكان مجلسه عاما للكبير والصغير والجليل والحقير والحر والعبد والذكر والأنثى، قد وسع على كل مَن يَرِد عليه من الناس، يرى كل منهم في نفسه أنْ لم يُكرِم أحدا بقدره"[2].

2 - وقال العلامة **ابن فضل الله العمري** (ت 749 ه) في مسالك الأبصار في ترجمة طويلة لشيخ الإسلام:

" فقد كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث فيهبه بأجمعه، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه، لا يأخذ منه شيْئًا إلاَّ ليهبه، ولا يحفظه إلاَّ لِيُذْهِبَه، كلُّه في سبيل البر، **وطريق أهل التواضع لا أهل الكبر**" [3].

3 - وقال **الحافظ ابن عبد الهادي** (ت744 ه):

"...وقال **بعض قدماء أصحاب شيخنا** وقد ذكر نبذةً من سيرته: أما مبدأ أمره ونشأته فقد نشأ من حين نشأ في حجور العلماء راشفًا كؤوس الفهم، راتعًا في رياض التفقه ودوحات الكتب الجامعة لكل فن من الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة والاشتغال والأخذ بمعالي الأمور

---

(1) الأعلام العلية" (ص 50- 52). وأقول: لو أن أخلاق كل المتكبرين والمغرورين على هذه الشاكلة التي كان عليها شيخ الإسلام كما نقلها البزار، فليت جميع الخلق يصيرون متكبرين!!

(2) الأعلام العلية" (ص 40)

(3) مسالك الأبصار" بواسطة "الجامع لسيرة شيخ الإسلام" (ص 255).

خصوصًا علم الكتاب العزيز والسنة النبوية ولوازمها، **ولم يزل على ذلك خلفًا صالحًا سلفيًّا متألهًا عن الدنيا، صينًا تقيًّا، برًّا بأمه، ورعًا، عفيفًا، عابدًا، ناسكًا، صوامًا، قوامًا، ذاكرًا لله تعالى في كل أمر وعلى كل حال، رجَّاعًا إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقَّافًا عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر بالمعروف، لا تكاد نفسه تشبع من العلم** [1].

4- وقال العلامة ابن القيم (ت 751 ه) في كلامه على منزلة الخشوع:

"... فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام حتى يدعي الشرف فيه، **ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه– من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره**" [2]، ثم ساق ما سننقله من أقواله.

- **وقال عند كلامه على درجة:** " أن تقرب من يقصيك وتكرم من يؤذيك وتعتذر"

"....**وما رأيت أحدًا قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية**، قدس الله روحه! وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه.

وما رأيته يدعو على أحدٍ منهم قط وكان يدعو لهم،وجئت يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال : إني لكم مكانه ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام؛ فسُروا به ودعوا له وعظموا هذه الحال منه؛ فرحمه الله ورضي عنه [3].

---

(1) العقود الدرية"(ص21)0

(2) مدارج السالكين" (1 / 524)0

(3) مدارج السالكين (345/2)0

- وقال ابن القيم أيضًا:

" وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا وأقواهم قلبًا وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينةً0 فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها [1] !

وقال ابن القيم حاكيًا عنه:

أنه كثيرًا ما كان يقول: "ما لي شيء ولا مني شيء ولا فيَّ شيء". وأنه كان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله! إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا.

وأنه كان يقول: العارف لا يرى له على أحد حقًّا، ولا يشهد له على غيره فضلًا؛ ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب.

وكثيرًا ما كان يقول: ﴿إياك نعبد ﴾ تدفع الرياء، ﴿ وإياك نستعين﴾ تدفع الكبرياء.

وكان يقول: من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية

وكثيرًا ما كان يتمثل بهذا البيت:

---

(1) الوابل الصيب" (ص67)0

ولو لم يكن لشيخ الإسلام من شاهد على تواضعه وزهده وإخلاصه وقيامه لله تعالى غير ابن القيم لكفانا، فشهادته أصدق عندنا من شهادة جماعة وجماعات، فكيف وهو لم ينفرد بذلك بل سبقه ولحقه فيه أئمة عدول مرضيون؟!



أنا المكدي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي [1]

وكان يقول : التكبر شر من الشرك فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى والمشرك يعبد الله وغيره [2].

ومما قاله نظمًا رحمه الله:

أنا الفقير إلى رب السماوات أنا المُسَكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهى ظالمتي والخير إن جاءنا من عنده يأتي

لا أستطيع لنفس جلب منفعة ولا عن النفس دفع المضرات

وليس لي دونه مولًى يدبرني ولا شفيعٌ إلى رب البريـــات

إلا بإذن من الرحمن خالقنا رب السماء كما قد جاء في الآيات

ولست أملك شيئًا دونه أبدا ولا شريك أنا في بعض ذراتي

ولا ظهير له كيما أعاونـــــه كما يكون لأرباب الولايات

والفقر لي وصف ذات لازم أبدا كما الغنى أبدًا وصف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم وكلهم عنـــده عبد له آتي

فمن بغى مطلبًا من دون خالقه فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي

والحمد لله ملء الكون أجمعـــه مـــا كان منه وما من بعده يأتي

ثم الصلاة على المختار من مضر خير البرية من ماضي ومن آتى [3]

(1) نقل عنه هذه الأقوال شيخ الإسلام ابن القيم في "مدارج السالكين" (1/ 54، 431، 523، 524)0

(2) مدارج السالكين(232/2)0

(3) العقود الدرية (ص 391).





الجهة الثانية: ما نُقل عنه فيما يتعلق بزهده في الرئاسة والمناصب

1 – قال الشيخ **علم الدين البرزالي** (ت 739 ه) في تاريخه عند ذكر إحدى محن شيخ الإسلام ابن تيمية، والأسباب التي كانت وراءها :

".....فحصل بسبب ذلك ضيق لجماعة مع ما كان عندهم قبل ذلك من كراهية الشيخ وتألمهم لظهوره وذكره الحسن، فانضاف شيء إلى أشياء. و لم يجدوا مساغا إلى الكلام فيه **لزهده، وعدم إقباله على الدنيا، وترك المزاحمة على المناصب**، وكثرة علمه، وجودة أجوبته وفتاويه، وما يظهر فيها من غزارة العلم وجودة الفهم.... " [1].انتهى المقصود.

2 – وقال **ابن رجب** (ت 795 ه):

"وقد عُرض عليه **قضاء القضاة قبل التسعين، ومشيخة الشيوخ** فلم يقبل شيئًا من ذلك. قرأت ذلك بخطه" [2].

3- وقال الحافظ **عمر بن علي البزار (ت749 ه)**:

" **ولقد اتفق كل من رآه، خصوصا من أطال ملازمته، أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا حتى لقد صار ذلك مشهورا بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل مَن سمع بصفاته على وجهها**، بل لو سئل عامي من أهل بلد بعيد من الشيخ: مَن كان أزهد أهل هذا العصر وأكملهم في رفض فضول الدنيا وأحرصهم على طلب الآخرة؟ لقال: **ما سمعت بمثل ابن تيمية**، رحمة الله عليه.

وما اشتُهر له ذلك إلا لمبالغته فيه مع تصحيح النية، وإلا فمَن رأينا من العلماء قنع من الدنيا بمثل ما قنع هو منها، أو رضي بمثل حالته التي كان عليها ؟ لم يسمع أنه رغب في زوجة

---

(1) العقود الدرية (ص 214).

(2) ذيل طبقات الحنابلة" (1 / 339). وابن رجب لم يعاصر ابن تيمية، لكن لقوله :" قرأت ذلك بخطه " استشهدنا به هنا.





حسناء ولا سرية حوراء ولا دار قوراء ولا مماليك جوار ولا بساتين ولا عقار، ولا شدّ على دينار ولا درهم، ولا رغب في دواب ولا نعم ولا ثياب ناعمة فاخرة ولا حشم، **ولا زاحم في طلب الرئاسات** ولا رئي ساعيا في تحصيل المباحات... " [1].

4- وقال العلامة **ابن الوردي** (ت 749 ه) في مرثيته الشهيرة في ابن تيمية:

إمام لا ولاية كان يرجو... ولا وقف عليه ولا رباط

ولا جاراكم في كسب مال... ولم يعهد له بكم اختلاط [2]

5 - وقال الصفدي (ت 764 ه) يرثيه:

وهو عن الدنيا زوى نفسَه والله بالجَنَّةِ قد عوّضـــا

فماله في منصبٍ رغبَةٌ وعزمُه في ذاك ما استنهضا

كان إذا الدّنيا له عرضت بزُخرفِ من نفسها أعرضا

ولو رأى ذلك ما فاته مناصبُ من بَعضهنَّ القضا [3]

---

(1) الأعلام العلية " (ص 45).
(2) "العقود الدرية"(ص 524).
(3) أعيان العصر وأعوان النصر "(1 / 65).





ثانيًا: ما نُقِل من ثناء العلماء والأئمة المعاصرين لشيخ الإسلام عليه في دينه وأخلاقه بما يناقض ما جاء في زغل العلم:

لن أتعرض في هذه النقطة إلى ثناء العلماء على علوم ابن تيمية ومعارفه، وإنما أقتصر على نقل ثنائهم عليه في دينه وأخلاقه- ولا أنقل ثناء إلا من معاصريه- بحيث يظهر أنه لا مناص من أحد أمرين: إما أن يكون ما ذكره الشانئ في زغله صحيحاً، ويكون كل أولئك العلماء والأئمة كاذبين في شهادهم وثنائهم على ابن تيمية، وإما أن يكون أولئك العلماء والأئمة صادقين في شهادهم وثنائهم ويكون ما ذكره الشانئ كذباً وزوراً؛ لأنه من غير المعقول أن يجتمع ثناء أولئك العلماء والأئمة وقدح ذلك الشانئ في رجل واحد ألبتة.

وإلى كلام معاصري شيخ الإسلام:

1- كان **الشيخ العارف بالله أبو عبد الله بن قوام** يقول: " ما أسلمت معارفنا إلا على يد ابن تيمية" [1].

2- قال **الشيخ عماد الدين الواسطي**: (**المعروف بابن شيخ الحَزَّامين** (ت **711هـ**) - وهو أسن من ابن تيمية وتوفي قبله بسبعة عشر عاماً- في رسالة بعثها إلى تلاميذ الشيخ:

"... **فو الله، ثم والله، ثم والله!** لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية **علمًا وعملًا وحالًا وخلقًا واتباعًا وكرمًا وحلمًا وقيامًا في حق الله عند انتهاك حرماته**، أصدق الناس عقدًا وأصحهم علمًا وعزمًا وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همةً، وأسخاهم كفًّا **وأكملهم اتباعًا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم. ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي**

(1) ذيل طبقات الحنابلة" (2 / 313).





النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، بحيث يشهد القلب الصحيح: أن هذا هو الاتباع حقيقة [1].

وقال الشيخ **عماد الدين** أيضا: "... شيخنا الإمام، الأمة الهمام، محيي السنة، وقامع البدعة، ناصر الحديث، مفتي الفرق، الفائق عن الحقائق، وموصلها بالأصول الشرعية للطالب الذائق، **الجامع بين الظاهر والباطن**، فهو يقضي بالحق ظاهراً وقلبه في العلى قاطن، **أنموذج الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين**، الذين غابت عن القلوب سيرهم، ونسيت الأمة حذوهم وسبلهم، فذكرهم بها الشيخ، فكان في دارس نهجهم سالكاً، ولموات حذوهم محيياً، ولأعنة قواعدهم مالكاً: الشيخ الإمام تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام ابن تيمية، أعاد الله علينا بركته، ورفع إلى مدارج العلى درجته" [2].

3- قال **العلامة ابن الجزري**: (ت 739 ه)، وهو ممن عاصر ابن تيمية، وقد ذكر في تاريخه حوادث سنة 728 :

" توفي الإمام العالم **العامل العلامة الزاهد العابد الورع الخاشع الناسك القدوة العارف** المحقق شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس..."

ووصف جنازته إلى أن قال: " والله العظيم: لقد رأيت الناس قاعدين على الطريق يمينًا وشمالًا الرجال والنساء، مختلطين كأنهم ينتظرون عبور السلطان، ومنهم من يبكي، ومنهم من يضج ويصيح، ومنهم يتأسف ومنهم يتفرج...." إلخ كلامه.

---

(1) شذرات الذهب" (84/6).

(2) العقود الدرية"(ص 310)0





4- قال **الحافظ أبو الحجاج المزي** :(ت742 ه) – وهو أسن من شيخ الإسلام-:

" ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله **ولا أتبع لهما منه"** [1]

5- قال الحافظ **علم الدين البرزالي** (ت 738 ه) في معجم شيوخه :

"أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني، الشيخ تقي الدين أبو العباس، **الإمام المجمع على فضله ونبله ودينه،** قرأ القرآن وبرع فيه والعربية والأصول، ومهر في علمي التفسير والحديث، وكان إمامًا لا يلحق غباره في كل شيء، وبلغ رتبة الاجتهاد، واجتمعت فيه شروط المجتهدين، وكان إذا ذكر التفسير أبهت الناس من كثرة محفوظه وحسن إيراده وإعطائه كل قولٍ ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال، وخوضه في كل علم كان الحاضرون يقضون منه العجب، **هذا مع انقطاعه إلى الزهد والعبادة، والاشتغال بالله تعالى، والتجرد من أسباب الدنيا، ودعاء الخلق إلى الله تعالى.**

وكان يجلس في صبيحة كل جمعة يقرأ على الناس تفسير القرآن العظيم، **فانتفع بمجلسه، وبركة دعائه، وطهارة أنفاسه، وصدق نيته، وصفاء ظاهره وباطنه، وموافقة قوله لعمله، وأناب إلى الله تعالى خلق كثير،** وجرى على طريقةٍ واحدةٍ من اختيار الفقر والتقلل من الدنيا ورد ما يفتح به عليه [2].

- وكتب **البرزالي** بخطه سماعَ طبقة على جزء فيه أحاديث منتقاة من جزء الحسن بن عرفة:

" قرأ هذه الأحاديث الثمانية **شيخنا وسيدنا الإمام العالم العلامة الأوحد القدوة الزاهد العابد الورع** الحافظ، تقي الدين، **شيخ الإسلام والمسلمين، سيد العلماء في العالمين، حبر**

---

(1) شذرات الذهب" (84/6)0

(2) الشهادة الزكية (ص48).





الأمة، مقتدي الأئمة، حجة المذاهب، مفتي الفرق، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية أدام الله بركته ورفع درجته" [1]

6- قال الحافظ ابن عبد الهادي (ت 744 ه) :

"...لم يبرح شيخنا رحمه الله في ازدياد من العلوم، وملازمة الاشتغال والإشغال، وبث العلم ونشره، والاجتهاد في سبل الخير، **حتى انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع، والشجاعة والكرم، والتواضع والحلم، والإنابة والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر أنواع الجهاد، مع الصدق والعفة والصيانة وحسن القصد والإخلاص والابتهال إلى الله، وكثرة الخوف منه، وكثرة المراقبة له، وشدة التمسك بالأثر، والدعاء إلى الله، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم، والصبر على من آذاه، والصفح عنه والدعاء له وسائر أنواع الخير** [2].

7- وقال الحافظ الذهبي (ت 748 هـ):

" الشيخ **الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع، شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر**" [3]

وقال "فو الله ما مقلت عيني مثله ولا رأى هو مثل نفسه.... **لا لذة له في غير نشر العلم وتدوينه والعمل بمقتضاه** " [4]

وقال: " **قدوة الأمة أعجوبة الزمان** بحر العلوم حبر القرآن تقي الدين **سيد العباد**" [5]

---

(1) الشهادة الزكية (ص48).
(2) العقود الدرية"(ص22)
(3) تذكرة الحفاظ (4 / 1496)
(4) المعجم المختص"(ص 25)
(5) نقله ابن عبد الهادي في "العقود الدرية"(ص 32)





وقال: "**رباني الأمة وفريد الزمان** وحامل لواء الشريعة وصاحب معضلات المسلمين"[1].

وقال :"...وأُوذي في **ذات اللّه** من المخالفين، **وأُخيف في نصر السنة المحضة، حتى أعلى الله مناره**، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وَكَبَتَ أعداءه، وهدى به رجالًا من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالبًا، وعلى طاعته، **أحيا به الشام، بل والإسلام، بعد أن كاد ينثلم**" [2]

8- كتب **العلامة ابن الزملكاني :** (ت 727 ه) على كتاب "بيان الدليل على إبطال التحليل" لشيخ الإسلام:

" من مصنفات سيدنا وشيخنا وقدوتنا الشيخ السيد الإمام العلامة الأوحد البارع الحافظ **الزاهد الورع القدوة الكامل العارف تقي الدين، شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، سيد العلماء، قدوة الأئمة الفضلاء، ناصر السنة، قامع البدعة، حجة الله على العباد، رادٌّ أهل الزيغ والعناد، أوحد العلماء العاملين آخر المجتهدين** [3]

9- كتب **العلامة تقي الدين السبكي :**(ت 756 ه) إلى الحافظ الذهبي معتذراً عما كان منه في أمر الشيخ تقي الدين بن تيمية حين عاتبه الذهبي في ذلك:

" فالمملوك يتحقق قدره وزخارة بحره وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده، وأنه بلغ من ذلك كل المبلغ الذي يتجاوزه الوصف، والمملوك يقول ذلك دائمًا وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأَجَلّ، مع ما جمعه الله له من **الزهادة والورع والديانة**

---

(1) العقود الدرية"(ص 38).

(2) كذا نقله عنه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة" (390/2)، وهو غير المعجم المطبوع، فإن للذهبي ثلاثة معاجم.

(3) العقود الدرية (ص24)0





ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان" [1] انتهى

10- كتب **الحافظ صلاح الدين العلائي**: (ت 761 ه) بخطه على ثبت الحافظ بهاء الدين عبد الله بن محمد بن خليل ما نصه:

" وسمع بهاء الدين المذكور على الشيخين: **شيخنا وسيدنا وإمامنا فيما بيننا وبين الله تعالى، شيخ التحقيق السالك بمن اتبعه أحسن طريق، ذي الفضائل المتكاثرة والحجج القاهرة التي أقرت الأمم كافة أن هممها عن حصرها قاصرة، ومتعنا الله بعلومه الفاخرة، ونفعنا به في الدنيا والآخرة، وهو الشيخ الإمام العالم الرباني والحبر البحر القطب النوراني، إمام الأئمة، بركة الأمة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين، شيخ الإسلام، حجة الأعلام، قدوة الأنام، برهان المتعلمين،** قامع المبتدعين، سيف المناظرين، بحر العلوم، كنز المستفيدين، ترجمان القرآن، أعجوبة الزمان، فريد العصر والأوان، تقي الدين إمام المسلمين، **حجة الله على العالمين، اللاحق بالصالحين، والمشبه بالماضين،** مفتي الفرق، ناصر الحق، علامة الهدى، عمدة الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، ركن الشريعة ذو الفنون البديعة أبو العباس ابن تيمية [2].

11- وقال العلامة **صلاح الدين الصفدي** (ت764 ه): "...الشيخ الإمام العا لم العلامة المفسر الفقيه المجتهد الحافظ المحدث شيخ الإسلام نادرة العصر ذو التصانيف والذكاء

---

(1) الرد الوافر (ص 52)، و"شذرات الذهب" (83/6)

(2) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" (186/1)0

تنبيه: ابن الزملكاني وتقي الدين السبكي والعلائي ثلاثتهم من المناوئين لابن تيمية، وقد شهدوا هم وغيرهم من أعدائه بفضله.

ومليحة شهدت لها ضراها... والفضل ما شهدت به الأعداء





والحافظة المفرطة....وصار من أئمة النقد ومن علماء الأثر **مع التديّن والتأله والذكر والصيانة والنزاهة عن حطام هذه الدار والكرم الزائد**" [1].

11- كتب الحافظ **شمس الدين محمد بن يحي بن محمد الحنبلي المقدسي ثم الصالحي** (ت 759 ه) بخطه في طبقة سماع لجزء الحسن بن عرفة:

" الشيخ الإمام، العالم العلامة الأوحد، البارع الحجة، الحافظ الزاهد، **العابد الورع، شيخ مشايخ الإسلام، بقية الأئمة الأعلام، إمام الأئمة، قدوة الأمة، علامة الزمان، فريد العصر والأوان، بحر العلوم،** تقي الدين أبي العباس أحمد... وذكر بقية نسبه وبقية المشايخ [2].

13- وقال المؤرخ **الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب الدمشقي الحلبي** (ت 779 ه):

"...شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس.....وكان تغمده الله برحمته يسحب ذيله على الطالب والوافد، وعبابا لا تكدره دلاء الصادر والوارد، وبحرا زاخراً في النقليات، وحبراً مُتلفعاً بِحِبرات العقليات، وإماما في معرفة الكتاب والسنة، **وهماما لا يميل إلى حلاوة من المنة، ذا ورع زائد، وزهد فرعه في روض الرِّضى مائد، وسخاء وشجاعة، وعزلة وقناعة،** وتصانيف مشهورة، وفتاوٍ أعلامها منشورة، ومعارف موادها وافية، **وإعراض عن الدنيا بالجملة الكافية، لا يكترث بنضرتها وبهجة نضارها، ولا يلتفت إلى المنقوش من درهمها ودينارها، يصدع بالحق ويتكلم فيما جلَّ ودقَّ. ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويثابر على إقامة الحقّ والحد، إن شكر أو لم يشكر**" [3].

---

(1) الوافي بالوفيات (2 / 375).

(2) الشهادة الزكية (ص60)0

(3) انظر تذكرة النبيه في أخبار المنصور وبنيه (ص 185)



14- وكتب **بعض علماء بغداد كتابا إلى الملك الناصر يطلبون فيه الإفراج عن شيخ الإسلام**، ومما جاء في هذا الكتاب:

"...ثم إن هذا الشيخ المعظم الجليل والإمام المكرم النبيل: أوحد الدهر وفريد العصر؛ طراز المملكة الملكية وعَلَم الدولة السلطانية لو أقسم مقسم بالله العظيم القدير: **أن هذا الإمام الكبير ليس له في عصره مماثل ولا نظير لكانت يمينه برة غنية عن التكفير، وقد خلت من وجود مثله السبع الأقاليم إلا هذا الإقليم يوافق على ذلك كل منصف جبل على الطبع السليم**. ولست بالثناء عليه أطريه، بل لو أطنب مطنب في مدحه والثناء عليه لما أتى على بعض الفضائل التي هي فيه: أحمد ابن تيمية درة يتيمة يتنافس فيها تشترى ولا تباع، ليس في خزائن الملوك درة تماثلها وتؤاخيها، انقطعت عن وجود مثله الأطماع. ولقد أصم الأسماع وأوهى قوى المتبوعين والأتباع: سماع رفع أبي العباس – أحمد ابن تيمية – إلى القلاع. وليس يقع من مثله أمر ينقم منه عليه إلا أنه يكون أمرا قد لُبس عليه ونُسب إلى ما يُنسب مثله إليه....

والذي عرض للملك بالتضييق على صاحب صواعه مع شدة الحاجة إلى غذاء الأرواح لعله لم يتحقق عنده **أن هذا الإمام من أكابر الأولياء وأعيان أهل الصلاح**، وهذه نزغة من نزغات الشيطان..."[1].

فتلك – كما رأيت أيها القارئ المنصف- **شهادة الأئمة والحفاظ والعلماء والمؤرخين المعاصرين** للرجل، وحاشاهم أن تجتمع شهادتهم على الباطل، ففي ذلك النقد الأثيم الذي جاء في زغل العلم= ردٌّ لشهادة أولئك العدول الثقات الأفذاذ، فكيف تُقبَل نسبتُه إلى إمام ثقة حجة مأمون كالذهبي رحمه الله تعالى، مع أنه تقدم من شهادة الذهبي

(1) "العقود الدرية"(ص 373)، و "الشهادة الزكية" (ص61).



نفسه وتزكيته لشيخ الإسلام ما يوافق شهادة أولئك الأئمة العدول ويناقض ما جاء بالزغل؟!

بل مَن يقرأ كلام ابن تيمية في السلوك، وتزكية النفوس، ودقائق أمراض القلوب، وما فتح الله عليه به في هذا الباب مما لا يُفتح به إلا على الربانيين العارفين؛ يقطع ببطلان هذا الكلام في حق شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

ونحن نستدل على الرجل من شهادة معاصريه أو مما ترك من آثار.

قال القاضي عبد الرحمن التَّفِهْني الحنفي (ت835 ه): " إن الشيخ تقي الدين ابن تيمية **كان على ما نقل إلينا من الذين عاشروه، وما اطلعنا عليه من كلام تلميذه ابن القيم الجوزية، الذي سارت تصانيفه في الآفاق،** كان عالمًا، مفننًا، متقنًا، **متقللًا من الدنيا، معرضًا عنها،** متمكنًا من إقامة الأدلة على الخصوم حافظًا للسنة عارفًا بطرقها عالمًا بالأصلين: أصول الدين وأصول الفقه، قادرًا على الاستنباط لاستخراج المعاني، لا يلومه في الحق لومة لائم، قائمًا على أهل البدع المجسمة والحلولية والمعتزلة والروافض وغيرهم0

والإنسان إذا لم يخالط ولم يعاشر يستدل على أحواله وأوصافه بآثاره، ولو لم يكن من آثاره إلا ما اتصف به تلميذه ابن القيم الجوزية من العلم لكفى ذلك دليلا على ما قلناه. وما نقل إلينا مما اجتمع في جنازته من الخلق التي لا تحصى حتى شبهت جنازته بجنازة الإمام أحمد – رضي الله عنه– عبرةٌ لمن اعتبر "[1]. انتهى.

وليس أمامنا، والواقع ما عرفتَ، إلا أن نقول: هذا الكلام افتراءٌ من الذهبي أو عليه. ونحن ننزه الإمام الذهبي عن الأول فلم يبق إلا الثاني، وهو ما يجزم به كل من عرف ابن تيمية وعرف الذهبي.

---

(1) "الشهادة الزكية"(ص84). والتَّفِهْني: نسبة إلى تفهنا بالفتح ثم الكسر وسكون الهاء ونون بليدة بمصر من ناحية جزيرة قوسنيا معجم البلدان (2 / 37).





وأخيرًا:

ففي ذلك القدح الوارد في الزغل إن كان ابن تيمية ملتبساً بما جاء فيه= مخالفةٌ لما عُهد من سنة الله تعالى في خلقه من فضحه لأولئك الذين تخالف سرائرهم ظواهرهم، وأنه- وإنْ علا شأنهم زمنًا- فهو لا يطول، بل يذهب جُفاء كما كان عملهم رياءً، وقد نظرنا فوجدنا دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ومصنفاته قد سارت مسير الشمس ما أفلت ولن تأفل بإذن الله تعالى، ولا يُعرف الآن أحدٌ غيره تَلْقَى كتبه من العناية والإقبال والمدارسة ما تَلْقَى كتبه، فإنْ دل هذا على شيء فهو يدل على الإخلاص وبركة المتابعة النبوية، نحسبه والله تعالى حسيبه، ولا نزكي على الله أحدًا.

ولقد صدق الإمام أبو البقاء بهاء الدين السبكي (ت: 777ه) حيث قال لمن سأله عن كلام الناس في ابن تيمية:

"والله يا فلان ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى؛ فالجاهل لا يدري ما يقول وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به" [1].

---

(1) قال الحافظ ابن ناصر الدمشقي (842) في كتابه الرد الوافر (ص 50):

" حكى بعض من لقيته من الشيوخ العلماء أنه حضر مرة مع قاضي القضاة أبي البقاء شيخ الشافعية درسا ألقاه بالمدرسة الرواحية وهي داخل باب الفراديس من دمشق، فجاءه جماعة من طائفة القلندرية يسألونه فأمر لهم بشيء، وكان إذ ذاك حاكما بدمشق على القضاء بها ثم جاءه طائفة أخرى من الحيدرية وهو يتوضأ على بركة المدرسة المذكورة، فسألوه فأمر لهم بشيء، ثم جاء فصلى ركعتين، ثم قال: رحم الله ابن تيمية! كان يكره هؤلاء الطوائف على بدعهم. قال: فلما قال ذلك ذكرت له كلام الناس في ابن تيمية، فقال لي وكان ثم جماعة حاضرون قد تخلفوا بعد الدرس يشتغلون عليه: والله يا فلان! ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى؛ فالجاهل لا يدري ما يقول وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به. قال: فأعجبني ذلك منه وقبلت يده، وقلت له: جزاك الله خيرا ". انتهى





الخاتمة

لقد تبين بما سقناه من وجوه النكارة العشرة في نسبة هذا القدح للإمام الذهبي؛ بطلان إضافته للذهبي ونسبته إليه، سواء صحت نسبة رسالة "زغل العلم" له أو لم تصح، ومن الأهمية بمكان أن يُعلم كذلك أن حاجة ابن تيمية إلى التبرئة من هذه التهم السخيفة ليست بأكبر من حاجة الذهبي إلى التبرئة من قولها؛ إذْ إن محصل القول بنسبتها إليه- أعني الذهبي- اتهامه في أمانته العلمية من جانب، وتجهيله في إضفاء النعوت والألقاب على الرجال، وتقييمهم والحكم عليهم، من جانب آخر.

وإلى هنا انتهى ما أردت تجليته من أمر رسالة (زغل العلم) وما جاء فيها من اتهام للإمام البارع ابن تيمية يرحمه الله، فإنْ أكُ قد بلغت ما إليه قصدت فذاك من فضل الله، وإن تك الأخرى؛ فالمرء يؤتى من قِبل نفسه والشيطان، وحسبي أني اجتهدت.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وسبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.





فهرس الموضوعات

مقدمة 3

المبحث الأول: القدح الوارد في الزغل وأهميته وسبب الوقوف عنده 5

سياقة مواضع النقد والقدح من رسالة من زغل العلم. 6

الموضع الأول الذي وقع فيه قدح من الذهبي في ابن تيمية: 6

الموضع الثاني الذي وقع غمز من الذهبي لابن تيمية 7

أهمية هذا القدح لدى خصوم ابن تيمية من المعاصرين 8

تنبيه على الخلط بين رسالة "النصيحة الذهبية" ورسالة "زغل العلم" 10

المطلب الرابع سبب الوقوف مع هذا القدح واستشكاله 13

تنبيهات مهمة 17

المبحث الثاني 18

إشكالية وقت كتابة رسالة الزغل والخط الزمني لبعض المذكورين فيها.............. 18

النقطة الأولى: الظاهر أن رسالة الزغل مكتوبة في حياة ابن تيمية. 21

النقطة الثانية: أن عبد الله بن خليل وقت كتابة الرسالة قد صار إماماً مقتدى به. . 22

النقطة الثالثة: هل تدل ترجمة عبد الله بن خليل أنه أصبح من مشاهير العلماء العاملين في حياة ابن تيمية؟ 23

المبحث الثالث 26

وجوه نكارة هذا القدح وبطلان نسبته للإمام الذهبي............................ 26

الوجه الأول 27

أولاً: الترجمة التي كتبت في حياة ابن تيمية: 33



ثانيًا: الترجمة التي كتبها بعد موته 40

الوجه الثاني.. 48

الوجه الثالث... 50

الوجه الرابع 52

الوجه الخامس 55

الوجه السادس 62

الوجه السابع 64

الوجه الثامن 65

الوجه التاسع.. 66

الوجه العاشر 68

أولًا: ما نُقِل من سيرة شيخ الإسلام مما يبرهن على ملازمته للتواضع والزهد في الرئاسة ومجانبة العجب والكبر.. 69

الجهة الأولى: ما نقل فيما يتعلق بتواضعه ومجانبته للكبر: 69

الجهة الثانية: ما نُقل عنه فيما يتعلق بزهده في الرئاسة والمناصب 74

ثانيًا: ما نُقِل من ثناء العلماء والأئمة المعاصرين لشيخ الإسلام عليه في دينه وأخلاقه بما يناقض ما جاء في زغل العلم: 76

الخاتمة.. 86

فهرس الموضوعات 87